رواية

محمود عبد الغني

معجم طنجة

@ketab_n
Follow Me
14.5.2017

المتوسط

محمود عبد الغني

معجم طنجة

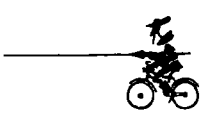

المتوسط

Twitter: @ketab_n

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٦ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهًة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Muà'jam Tanja *by* "Mahmoud Abdelghani"
Copyright © 2016 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: محمود عبد الغني / عنوان الكتاب: معجم طنجة
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-42-7

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

معجم طنجة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إلى سكينة، رشاد، إيناس وأسماء

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

"بدا المكان في حالة متقدّمة من الانهيار حينئذ، كما لو أنني أحيا بين ثنايا قصيدة لنوفاليس"

بول بولز

"هل العشق يجعل الإنسان غبياً؟ أم أن الأغبياء - فقط- يعشقون".

أورهان باموق

" تستطيع أن تقتلع الإنسان من بلده، لكنك لا تستطيع اقتلاع البلد من قلب الإنسان".

جون دوس باسوس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-١-
طنجيس

"في طنجة، يتحوّل مقهى الحافّة - خلال فصل الشتاء - إلى مرصد للأحلام، وتبعاتها. وكأن قطط المصاطب والمقبرة وفرن الخبز الكبير في "مرشان" تجتمع هناك؛ لكي تشاهد العرض الجاري بصمت، ولا يخدع أحد. شيشات الكيف الطويلة تُنقَّلُ من طاولة، إلى طاولة، إلى طاولة..."

الطاهر بنجلون، "أن ترحل"

هناك اسم قديم لمدينة "طنجة" ظل محمّد شكري يفضّله عن الاسم الحديث. المباني القديمة الأوروبية الطراز، والمقاهي، والمدافع العتيقة على الأسوار، والأسواق، والأحياء القديمة، والمطاعم، والرسائل التي تصل من العالم أجمع، مثل الكُتّاب، هي ما يُبقيه في "طنجيس". سيموت فيها، وتستمرّ حياة ما بعد موته فيها.

مُدُن عديدة سُمّيت للأشجار الموجودة فيها. "بانكوك" هي "بان" مدينة، و"كوك" هي الزيتون؛ أي مدينة الزيتون، وقد سُمّيت كذلك، بسبب أشجار الزيتون الموجودة فيها بوفرة. وهناك مدينة سُمّيت "مدينة الملائكة" دون معرفة الداعي إلى تسميتها كذلك. وطنجة سُمّيت عن الطين الذي حملتْه الحمامة التي حطّت على سفينة نوح حين رست بالخطأ على الشاطئ: "طين جا"؛ أي "جاء الطين"، كناية عن اليابسة القريبة. يابسة النجاة، لمركب نجا من الطوفان العظيم.

أما بشرة أهل طنجيس البيضاء الصافية؛ فراجعة إلى وجود بحرين

Twitter: @ketab_n

متألّقين، يحيطان بها مثل وشاح مائي متلألئ. وحتّى الأشجار - وهي أجمل تحف المدينة - تبدو أوراقها صافية اللون، وشفّافة، كأنها نبتت، ونمت في الظل. وإن قارن المرء بين ناس وأشجار مُدُن الجنوب، الأشجار هنا والنخيل هناك، فإنه سيقف - بإعجاب - أمام بياض طنجيس وبين لون الجنوب الذي يميل إلى لون الحداد. لكنْ؛ في الليل تُترك مُدُن الجنوب للشموع، تضيء البيوت من الداخل، فيما القمر يتكلّف بإضاءة الخارج دون أن تمنعه أشجار النخيل من الوصول إلى الرؤوس المتجوّلة بحثاً عن نسمة هواء.

لكنْ؛ ما لا يستطيع المرء مقارنته هو تلك الأعمدة التي تستند عليها طوابق المباني الأوروبية. والتي عندما يُسدل ستار الليل، وتُضاء المصابيح على قمم الأعمدة، تظهر المدينة في لبوس معبد بوذي أرجواني اللون، يبوح بأسراره لأرواح الخلّص، ما إن تُضاء أول شمعة. تتعدّد صور الحياة، وتتنوّع نغمات الكون، فتصبح المدينة لوحة ذات ألوان مغايرة لألوان الساعات السابقة. هذا ما يعرفه أهل طنجيس، والوافدون عليها من القرى والأرياف والمُدُن الأخرى، مكان يتغيّر دون إشعار مسبق، وناس النهار مختلفون عن ناس الليل.

هناك رجال هربوا إلى المدينة دون أن يعرف مطاردوهم إلى أين اتّجهوا. فثغور طنجيس لا تفضح الهارب. يختبئون حتّى تختفي آثارهم، وفجأة يخرجون من بقايا الرماد. هناك رجال هربوا منها دون معرفة مصائرهم بعيداً عنها، هرباً إلى بحار خصوبة شاسعة وغير محدودة: أميركا، أوربا... وبقوا من بعيد، اللهم بعض الاقترابات النادرة والمتفرّقة، يشهدون نهاياتها وتشرذمها وتيهها الجهنّمي، الذي تذهب إليه طنجيس بطيب خاطرها. فقد دخلت لعبة تناسخ هائلة مع مُدُن عربية، أخرى قرّرت إنهاء حياتها على الأرض. فكانت روح طنجيس تذهب نحو تلك المُدُن المنهارة، وحين لا يتمّ السماح لها بالذهاب، تستدعيها سرّيّاً؛ لأنها على وعي تام بأنها تستدعي الانهيار إلى حضنها، والمحيّر أن هناك - دائماً - حلماً يتراءى لها. وبعد الحلم، يسود صمت طويل، وتردُّد غير مفهوم، وارتجاجات تهدّد كل شيء بالسقوط.

Twitter: @ketab_n

كانت السفن كلها التي تأتي إلى مينائها، تتحوّل عند اقترابها إلى هياكل سوداء بفعل السُّدم التي تغشى عرض البحر. بحرها الذي يقدّسه الصيادون والشعراء والرسّامون والفلاسفة والمؤرّخون والموسيقيون. بحرها هذا يتحوّل في لحظات شديدة الكثافة إلى جرعة ماء في أيدي القراصنة. وما إن تدفع تلك السفن الموجات بقوة؛ لتنكسر على الشاطئ، أو على أحجار وحواجز الميناء، حتّى تفوح روائح خانقة، وتنتشر مياه سوداء، لا يُعرَف مصدرها. ربمّا هي بقايا ذلك الطين الذي حملتْه الحمامة في رجليها إلى مركب نوح.

تختفي النوارس التي كانت تحلّق منخفضة. فيعرف أهل المدينة أن السفن قادمة لنشر أشياء كثيرة، تضم اللغات والسلع والرسائل والكُتُب والمهاجرين والفارّين والأمراض القاتلة، تماماً كما كانت تحكي الأساطير القديمة. فهل تقدر طنجيس على استدعاء الأساطير القديمة، وتكرار عيشها؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-٢-
أصداء في ردهة النفس

" سوف تحسّ بالرضى لفرضك نفسك عليهم. اعترفْ بهذا. لقد فرضت نفسك؛ لكي يقبلوك كواحد منهم؛ ونادراً ما أحسست بأنك سعيد مثلك في ذلك الحين، ذلك لأنك منذ أن بدأت تصبح ما أنت هو، ومنذ أن تعلّمت ملامسة الأقمشة الثمينة، وطعم المشروبات الجيدة، وعطر الطيوب الممتازة، وكل ما كان خلال الأعوام الأخيرة متعتك المنعزلة والوحيدة، منذ ذلك الحين، ثبت نظرك هناك فوق، نحو الشمال، ومنذ ذلك الحين، عشت حنين الخطأ الجغرافي الذي لم يتحْ لك أن تكون في جميع الأشياء واحداً منهم." .

كارلوس فوينتيس، "موت أرتيميو كروز"

أخيرا أمكن لمحمّد شكري أن يرى توماس لانيير ويليامز، الشهير بـ"تينيسي وليامز" الذي ملأ أسماعه منذ سنين. يرى أمامه التمساح العجوز يتكلّم، وينصت، ويضحك، قبل أن يختفي من أمامه متذرّعاً بموعد وشيك، أو بالذهاب إلى مركز البريد قبل الإقفال لاستلام أعداد من مجلة، أو حوالة مالية. هل هذا ما قصده محمّد زفزاف حين قال: "سترى شهاباً سريعاً".

زفزاف دائماً يُوفّق في إطلاق التسميات الرائعة حين تبدأ لحيته تقطر خمراً. لم يخطر هذا التشبيه على ذهن زفزاف حين التقى تينيسي في مرسم أحمد اليعقوبي في صباح اليوم نفسه. ودون شك ما أوحى بذلك التشبيه هو عجلة تينيسي واختفاؤه السريع من مرسم اليعقوبي. وليس بسبب حركاته، أو طريقة كلامه.

Twitter: @ketab_n

كان شكري قد قرأ له مسرحيته "قطار اسمه الرغبة"، ومات من الرغبة، هو الميت من الجوع، والعطش، والخوف. هو الميت من الماضي والذكريات. وكان يجد أن اسم توماس أجمل من تينيسي المستعار. لكن ذلك شأن خاص بالتمساح العجوز، ومتعلّق بالذائقة الاسمية الأمريكية. فقد يجد تينيسي أن الاسم الحقيقي لمحمّد شكري الذي هو "الشيكر" أفضل من شكري. لكنْ؛ ليس مهما الآن البداية بلعبة تفضيل الأسماء عن بعضها، فالاسم جميل حسب الناطق به، وحسب الأصداء التي يخلّفها في ردهة النفس.

جاء تينيسي إلى طنجة هرباً من أميركا، عازماً على التوجّه - بعد ذلك - إلى بلدان أوروبية، لم يحدّدها بعد. هذا ما قاله لصديقه بول بولز. تماماً مثلما هجرت "ستيلا دي بوا" بطلة مسرحيته، عائلتها البورجوازية؛ لتعيش مع زوجها "ستانلي كوفالسكي"، البولوني البائس.

إنها حياة تينيسي نفسها، ذلك الخليط من الحب والعنف. هذا ما يعرفه شكري عن القادم الجديد إلى مدينة البوغاز. ولكن تعبير زفزاف "الشهاب السريع" جعله يمسك بالشهاب من المنطقة الباردة، غير الحارقة؛ ليبقيه أطول وقت أمام عينيه، جنبه في المقهى، والحانة، والبيوت التي يُدعى إليها لتناول عشاء، أو كأس أو لحظة متعة بجرعات كبيرة في سهرة من السهرات في بيوتات الأجانب في طنجة.

في تلك الأيام، قال شكري قد نشر الجزء الأول من سيرته الذاتية في مجلة "أنطايوس"، بترجمة بولز. ولم يتوصّل من الناشر "دانيال هالبرن" بملّيم واحد. ففكّر في أن يعطي تينيسي الفصل الأول لقراءته، وإبداء الرأي فيه، وفي الآن نفسه، سؤاله عن إمكانية الاتصال بالناشر لإرسال شيك. وحتّى مسألة إبداء الرأي هذه ليست مهمّة، بقدر ما مهمّ أن يعرف تينيسي أنه رفقة كاتب مغربي، يكتب باللغة العربية، ومترجمه هو أحد أكبر فناني وكتّاب أميركا الأحياء.

Twitter: @ketab_n

يرتبط اسم تينيسي في ذهن شكري بمسرحيات عديدة، تُرجمت له إلى العربية، أُعجب بواحدة منها، تحمل عنوان "هبوط أورفيوس"، وأيضاً "قطّة فوق صفيح ساخن". كما أنه يرتبط - أيضاً - بذلك الكاتب العظيم الذي حين لا يكون مجبراً على كتابة حوار سينمائي بشكل عاجل، أو بإجراء تعديل، أو إعادة كتابة، مسرحية سيقدّم عرضها الأول بأحد مسارح مدينة برودواي، فإنه يجلس إلى مكتبه لكتابة القصص والروايات.

لكنْ؛ ممّا لا شك فيه أن لقاء شكري بتينيسي كان بفضل بولز وحده، وبفضل زوجته المرحومة جين آور صاحبة الرواية الرائعة "امرأتان رصينتان". جين التي عذّبها المرض قبل رحيلها في تلك السنة، والتي كان لها الفضل في أن أصبح اليعقوبي فناناً مشهوراً. بول وجين شخصان خاليان من التفاهة، وبفضلهما أصبح شكري كاتباً، واليعقوبي رسّاماً، والمرابط كاتباً شفوياً مشهوراً، بفضل ترجمة بولز لمَحكيات حياته الشفوية "حياة مليئة بالثقوب". تُرى لو لم يترجم بولز كتاب شكري "الخبز الحافي"، هل كان سيلتقي تينيسي؟

عندما قرأ تينيسي الفصل الأول من كتاب شكري أُعجب به، واحترمه، ورافقه ككاتب. ورغم فقره، فهو غني بتخييله، بحكاياته، بمذكّراته، بتوقه واجتهاده.

جلس شكري في مقهى باريس ينتظر قدوم تينيسي، كما أخبره اليعقوبي وزفزاف. يعود الكاتب الأميركي إلى طنجة بعد زيارته لها سنة ١٩٦٤. بقي رجل "الخبز الحافي" ينتظر وأمامه على الطاولة شاياً أسود، بالليمون. ينظر إلى الكأس، ويتخيّلها مليئة بالفودكا، الخمرة التي أدمنها حين كان يشتغل مع بولز على ترجمة "من أجل الخبز وحده" إلى الإنجليزية. ينتظر ويفكّر: "هل تينيسي ما يزال يشرب الخمرة، على عكس بولز الذي أقلع؟".

في سنة ١٩٧٣، تجاوز تينيسي عقده السادس بسنتين. كاتب في أوج شهرته. وشكري يصغره بعشرين سنة، وليس في رصيده غير ذلك الكتاب

Twitter: @ketab_n

المدوّي مترجماً إلى الإنجليزية " من أجل الخبز وحده". ليس الكتاب هو تأشيرته إلى مدينة الكتابة الفاضلة، بل مترجم الكتاب بول بولز. وهو كاتب تربطه بتينيسي صداقة قوية. وهو يحبّه حبّاً لا مثيل له، بفضل وقفاته إلى جانب زوجته جين حين كانت تتخبّط في براثن المرض، منتقّلة من عاصمة إلى عاصمة. وبولز لا ينسى ما فعله، من أجل العناية بزوجته جين، كان آخرها انتظاره واستقباله لها في مطار نيويورك، وهي عائدة من لشبونة؛ حيث كانت تعالج التشنّجات التي كانت - في كل مرّة - تكاد تودي بحياتها. كانت لشبونة مدينة غائمة ومعتمة وماطرة على الدوام، لم تتحمّل جين البقاء فيها، لكنها كانت تتحمّلها من أجل العلاج. وفي النهاية، خرجت منها بعد انتهاء مدّة صلاحية جوازها.

استقبل تينيسي "جين" المريضة الأمريكية التي بدأت تعاني من مشاكل في الكلام، وكانت قد بدأت في تلقّي دروس قراءة يومية. وانتقالها إلى نيويورك، حسب قرار والدتها، كان من أجل الدخول في تجربة علاج أمريكية. ولم يكن تينيسي ينتظر جين آور زوجة صديق عمره بول بولز، بل كان ينتظر الكاتبة العظيمة ذات الروح المرحة مثله، والتي لا يستطيع أي كاتب في سنّها كتابة حوار مثل هذا:

"-الآن لا تفارقيني - أبداً - بعينيك. سأقوم برقصة عبادة الشمس. بعد ذلك، سأبرهن لك على أنني أفضّل أن أرى إلهاً بدون شمس، على أن أرى الشمس، بدون إله. هل تفهمين؟

قالت ماري:

- نعم، ستفعلين ذلك فوراً.

- نعم، وهنا بالذات.".

كتابة عظيمة، وأفكار خارقة لامرأة، لم تترك سوى رواية ومسرحية ومجموعة قصصية. وشكري لا يعرف شيئاً من تلك الروابط الإنسانية والأدبية العميقة

Twitter: @ketab_n

التي لم يسمع بمثلها في الأدب المغربي، أو العربي برمّته. شكري يفكّر في إيجاد مكانة في الأدب، وفي كأس فودكا في بيت بولز. فرغم أن صاحب "السماء الواقية" قلّل من الشرب، إلا أنه سيشرب نخب تينيسي هذه الليلة. شكري ذئب عطشان، لكنْ؛ هل سيدعوه تينيسي إلى سهرة، في بيت بولز؟

ذلك الحوار كله جرى بينهما في مقهى باريس. لم يلاحظ شكري التعب على تينيسي العائد من أميركا، ومن عمل متلاحق دون فواصل. من المسرح، إلى السينما، إلى القصّة القصيرة إلى السهر مع الأصدقاء. واليعقوبي لا يمتلك فن تقديم الناس لبعضهم. قدّم شكري لتينيسي، وقدّم تينيسي لشكري، ثمّ هوب: "تينيسي يفتّش عن فيللا؛ ليقضي فيها عطلته". الكلام موجّه إليه، بحجة أنه يعيش - باستمرار - في طنجة.

اليوم حارّ جدّاً. تينيسي يتأبّط جريدة إنجليزية، ومرافقه يحمل آلة تصوير فخمة، ولا يتكلّم. ليس شكري وحده مَن اشمأزّ منه، بل الاشمئزاز باد على تينيسي نفسه. لشكري خبرة في فحص مزاج الكتّاب الأجانب، لقد سبق أن رافق جان جينيه، وكتب عنه كتاب "جان جينيه في طنجة". فهل ينوي كتابة "تينيسي وليامز في طنجة"؟

وهما في طريقهما إلى وكالة كراء، سأل شكري كاتبه المفضل عن مدى معرفته بترجمة كتبه إلى العربية. فأجابه بأنه سمع بالأمر ولا يعرف مدى جودة تلك الترجمات، لكنه سعيد، بكونه تُرجم إلى العربية. لكن شكري لم يسمع جيّداً بداية جملة طويلة، أنهاها تينيسي بكلمة "غلمان". إذنْ؛ الرجل السائر إلى جنبه صاحب غلمان. التفت شكري إلى اليعقوبي، ثمّ إلى مرافقه الجامد بحثاً عن مساعدة. اليعقوبي منشغل بالحديث مع مرافق تينيسي، وهذا الأخير منهمك في أخذ صور لسيده، وهو يسير.

بدأ يمشي ببطء، ويلتفت إلى واجهة مكتبة، تقع بالقرب من فندق "رامبراند". سأله شكري عن سرّ التفاته إلى المكتبة، هل يبحث عن كتاب

Twitter: @ketab_n

ما؟ لكنْ؛ كان بسؤاله هذا، كأنه فتح نافورة حكايات وذكريات متدفّقة. اقترح تينيسي عليهم الدخول إلى الفندق، وتناول كأس للاحتماء من حرّ طنجة. اعتذر اليعقوبي، فودّعهما ضارباً موعداً معهما في يوم غد، بمقهى باريس. أما الفكرة؛ فنزلت شكري برداً وسلاماً. طلب تينيسي شراب فرني برانكا، وطلب شكري كأس فودكا. ثمّ بدأ يحكي بشوق واسترسال عن جين بولز الرائعة. أما باكسه فلم يكفّ عن أخذ الصور. وحين طلب منه شكري أخذ صورة تذكارية مع تينيسي، رفض بكل وقاحة، بدعوى أنه لم تبقَ له سوى خمس صور. تينيسي منشغل بالتذكّر. لن يفارق ذاكرته ذلك اليوم الذي عاد فيه رفقة جين على متن باخرة، وكان في انتظارهما بولز، يلوّح لهما بيده، وهما يدخلان المرفأ. كانت جين بصحة جيدة، لكنها تحرص على تناول أدويتها، بشكل كثيف. وحين رأى بولز علامات التعافي على حبيبته، كاد يطير من الفرح. انتقلا من المرفأ إلى البيت، للاحتفال بعودتهما من أميركا. في تلك الأيام، كان بولز منشغلاً بتسجيل الموسيقى المغربية. وقد كان يستغرب كيف أن المغاربة أنفسهم أطلقوا عليها "موسيقى المتوحّشين". ولذلك اعترض العديد من مثقّفيهم، على ما كان يقوم به بولز. استعان لإنجاز عمله بشخص يُدعى محمّد العربي الجيلالي. قال شكري إنه يعرفه، فقد عمل - في وقت ما - في بعثة بريطانية عبر الصحراء والسودان. فأضاف بأن بولز كان يرافقه شخص أميركي، يُدعى كريستوفر وانكلين، وهو يتحدث لهجة مغربية جيدة غير أنه كان نصرانياً، وبولز - بحكم تجربته الطويلة في المغرب - كان يقول بأنه يُستحسَن أن يرافقك شخص مسلم حيثما ذهبتَ في المغرب. تركني أنا وجين في طنجة، وهام على وجهه في الصحاري والجبال. وفي تلك الأيام، بدأت والدة جين تُراسلها، من أجل العودة إلى أميركا.

سأله شكري عن موقف جين من طنجة، وعن مدى رغبتها في مرافقة بولز في رحلاته تلك. فشرح له أنها كانت تعرف طاقتها على تحمّل السفر في الجبال. كان يحكي لها بولز عن التعثّر والركود الذي يعترضهم في أثناء تلك الرحلات. وغالباً ما كانت تتمّ تلك الرحلات في الصيف. والمطر بعيد

Twitter: @ketab_n

عن سماء المغرب. ليال عديدة، يقضيها حول النار الموقظة والطبول التي تُقرع تحت النجوم. ورغم وجود الموسيقى كان يتعذّر تسجيلها، بسبب غياب الكهرباء. كانت حكاياته تثير رومانسية جين وحسّها الذي يميل إلى التيه. لكنْ؛ لا طاقة لها على تحمّل ذلك كله، فكانت تكتفي بسماع حكايات الصحراء والجبال والقمر والطبول. ألف ليلة وليلة معكوسة، شهريار يحكي لشهرزاد.

كم أراد شكري أن يسترسل تينيسي في حكاياته عن بولز. غير أن شكري عمل على نبش ذاكرته؛ ليحكي عن حياة بولز المشتركة مع كتّاب أميركيين آخرين؛ مثل ويليام بوروز. الكاتب الطويل القامة والهادئ. وعن ترومان كابوت، القصير القامة والغريب الأطوار. فشكري يريد معرفة كل شيء عن حياة بولز الغامضة. فقد كان يحسّ أنه يخفي شيئاً من تاريخه، ولا يفتح صفحات هذا التاريخ إلا للأمريكيين. أما المغاربة؛ فلا يستحقّون معرفة تفصيل واحد من تفاصيل حياته الغنية والكثيفة. لكن تينيسي فضّل البدء بـ"بوروز"؛ لأنه الأشدّ ارتباطاً بـ"بولز".

مع الكأس الثالثة، شرع تينيسي في الحكي عن بوروز. وطول صمته يبين أنه كان محتاراً في كيف يبدأ الحديث عن صداقة، بدأت من نقطة معينة. من مرض بولز بالتيفويد، أو بحمّى شبيهة بالتيفويد. بقي طريح الفراش مدّة ثلاثة أسابيع في غرفة باردة في فندق مارسيليا، الذي كان يقيم فيه هو وجين الحديثة العودة من الولايات المتحدة. وكانت تقيم في غرفة أخرى رفقة خادمتين، كانتا تساعدانها في تحضير كل شيء، خصوصاً الطعام الذي يحتاجه بولز طيلة اليوم. وذات صباح، زاره رجل نحيف لعيادته رفقة أحد معارف بولز في طنجة. لم يكن بولز - في تلك الفترة - قد أصدر شيئاً غير كتاب تحت عنوان "عاشق". بولز الذي كان - دائماً - على معرفة محيطة بالأدب الأمريكي، وخصوصاً جيل البيتز، لم يسمع بالكتاب، ولا بالكاتب. هكذا بدأت صداقة أدبية خالدة، لم يوقفها سوى الموت.

Twitter: @ketab_n

شكري نفسه كان يلاحظ أن حياة بولز هي مجموعة من المتواليات. ففي مرّة، هو مريض ومقعد. وفي مرّة أخرى، يستقبل إيطاليين، لا تفارق القيثارات أكتافهم. وفي مرّات، يختفي؛ لينجز مشروعاً لكتاب. فذات مرّة، رحل إلى فاس هاجراً طنجة التي وجد أنها بدأت تمتلئ بالكراهية والخوف. والصحف التي يطالعها كل صباح تُخبر عن جرائم وجثث مجهولة في أماكن كثيرة من طنجة. لاحت فاس أمام قلبه. أخبره بعض الأمريكيين أنه مدينة آمنة، تساعده على إنجاز كل ما يريد. وحين جاء الصيف، اختفى دون إشعار. ذهب شكري إلى بيته في المساء، وطرق الباب عدّة مرّات، ولم يجبه أحد. حتّى المرابط غير موجود.

وفي صباح اليوم التالي، أخبره اليعقوبي بأن بولز في فاس. آخر واحد يمكن أن يخبره بولز عن أماكن تواجده هو شكري. لكنه وافقه الاختيار، ففاس تصلح ورشة للكتابة فعلاً. أما طنجة؛ فهي مدينة تنهار أمام أعين الجميع. لكنه ما أدرك أن فاس هي الأخرى تنهار من يوم لآخر، ويتفرج عليها أهلها. أ ليس من الجنون بناء بيت فوق نافورة؟ البيت الذي اكتراه بُني فوق نافورة، لذلك كانت جدرانه مبلّلة طوال الوقت، ورغم محاولته طلاءها وترتيب غرفه إلا أنه لم يستطع الصمود فيه أكثر من شهر. وحين اتصلت به جين تسأل عن الأوضاع، وتستشيره في الالتحاق به، رفض، وفي اليوم التالي، عاد أدراجه إلى طنجة. ووضع برنامجاً، للعمل من أجل كتابة رواية جديدة.

قال تينيسي لشكري إن بولز غير مطمئن - تماماً - لما يحدث في طنجة. فالناس أصبحوا يعثرون على الجثث أمام بيوتهم. الأجانب خائفون جدّاً على حيواتهم وممتلكاتهم. منهم مَن رحل، ومنهم مَن يتدبّر أموره، من أجل الذهاب دون عودة. لكن شكري ردّ قائلاً إن بولز لن يرحل عن طنجة، لقد أصبح جزءاً منها، وأصبحت جزءاً منه. وفي أقصى حالات سخطه، سيستقلّ الباخرة للذهاب إلى باريس، أو لشبونة، وفي ذلك خير له، وخير لزوجته جين.

كان اليعقوبي قد أخبر شكري أن بولز وجين سيرافقانه إلى سايلون؛ حيث

Twitter: @ketab_n

تمّ وضع ترتيبات لعرض آخر رسومات اليعقوبي. وبولز يسأل عن الجوّ هناك، فلا شك أنه حارّ، وجين لن تتحمّل. لكن جين كانت مصرّة على السفر. ظهر على تينيسي أنه يسمع تفاصيل جديدة عن حياة بولز وزوجته. فقال لشكري:

- اشرب، وتكلم، سأنصت إليك إلى آخر الحكايات، أنت مَن سيحكي لي دوماً، كما كنتَ تحكي لبولز.

قال شكري إنه يلوم بولز على العديد من الأشياء، وغير متّفق معه في الكثير من المواقف. فهو - مثلاً - ينعت الطنجاويين بالجياع والمتسوّلين، والوطنيين بالإرهابيين. المغرب يعرف تغيّرات تاريخية، وهو يريده أن يبقى على حاله؛ لينعم بالسلام. هنري ماتيس - أيضاً - كان يفضّل أن تبقى طنجة على حالها. وهل ينعم أهله بالسلام مع الاستعمار؟ هذا هو السؤال. هل سيبقى الطنجاويون جياعاً إلى الأبد؟ هل يريد ماتيس أن تبقى زهرة عاهرة إلى الأبد؛ ليرسمها في شرفته؟

تذكّر تينيسي - فجأة - بأن بولز ينتظره في البيت على الساعة السادسة مساء. عليه أن يذهب إلى الفندق؛ ليغيّر ثيابه، ويحمل معه بعض الكُتُب لبولز، وبعض الأشرطة الموسيقية. لم يقل شيئاً لشكري غير:

- نُكمل كلامنا عند بولز في المساء.

ثمّ خرجا، كلّ إلى وجهته. تينيسي إلى الفندق، شكري إلى لا مكان في مدينة طنجة. ندم عن كل ما قاله أمام تينيسي عن بولز. لابد من وضع حدّ للهجة القاسية ضد مترجم كتابه. فبولز يفضّل سماع مثل هذا الكلام أمامه، وليس أمام شخص آخر، هو من أعزّ أصدقائه. فقد يفهم ذلك تشهيراً وتلويثاً للسمعة. لكن تينيسي - هذا الرجل المرح - لا يمكن أن ينقل الكلام إلى بولز. فكّر شكري في إصلاح الأمر في المساء.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-٣-
مغاربة في بيت بولز

"في المغرب، الرجال كلهم قبيحون. الفتيات يرقصنَ في مقاهي الغاردية، لكنهنّ حزينات دائماً، فهنّ ما يزلنَ يرغبنَ في تناول الشاي في الصحراء".

بول بولز، "السماء الواقية"

في الطريق إلى الفندق، تحت شمس حارقة، لم يتمكّن تينيسي من إيقاف سيارة أجرة. فهي - على قلّتها في طنجة - تمرّ مسرعة دون أن يلتفت سائقوها إلى الناس السائرين على الأرصفة، أو المنتظرين تحت ظلّ بيت، أو في انعطافة زقاق. هذه هي الجيوب التي ينتظر فيها الناس. في أميركا، السائق هو مَن يبحث عن الزبائن في الشوارع والأزقة. هذا إضافة إلى ظهور وكالات صغيرة، تربط الاتصال هاتفياً بين الناس والسائق. حين وصل إلى الفندق، وجد نفسه مجهداً، وبه رغبة إلى الارتماء في السرير. لكنه قاوم، وحمل الكُتُب والأشرطة، وغيّر الملابس، ووضع قميصاً صيفياً داخل كيس صغير، هدية منه لصاحب "من أجل الخبز وحده". فقد لاحظ لباسه الشتوي، في صيف طنجة الحارّ.

حين اجتمع الضيوف في بيت بولز، فتح المرابط النوافذ، وأزاح الستائر؛ ليستمتعوا بضوء القمر المكتمل. فقمر طنجة حين يكون في اكتمال، يشبه تحفة من الضوء، يهديها الله لعباده نهاية كل شهر من فصل الصيف. فهذا القمر الذي يكلّل الرؤوس، كثيراً ما سهر تحت ضوئه بولز في الصحراء والجبل حين كان يطوف لجمع الأغاني والإيقاعات الحزينة البعيدة.

Twitter: @ketab_n

المرابط لا يكلّم شكري، وشكري لا ينظر جهة المرابط. فالمرابط لم يعد يطيق وجود المغاربة في بيت بولز. جفناه متدلّيان من كثرة تدخين الكيف في المطبخ، وهو منشغل بتهيّيء طعام العشاء. وشكري عينه على قنّينة الويسكي الفاخرة التي أخرجها بولز من مغارة علي بابا، على شرف تينيسي.

جلست جين على الكرسي الفخم، في وضع يجعلها تُشرف على الجميع. أعلى منهم قليلاً، لدرجة أنها تستطيع رؤية رؤوسهم من فوق، لو مدّت عنقها قليلاً نحو الأعلى. جلس بولز على الكرسي الواطئ القريب منها. ثمّ خاطبهم قائلاً:

- ألا تشعرون أن طنجة متوتّرة أكثر من أيّ وقت مضى؟

نظرت جين إلى تينيسي، ثمّ غيّرت الموضوع. فتينيسي يُصاب بالفزع من مثل هذه الأخبار، هو القادم من أميركا، للبحث عن الكلمات والأفكار.

- هل أطلعت تينيسي على الرسالة التي توصّلت بها من ناشر زيوريخ؟

علّق شكري قائلاً:

- الرسائل تصل، إذنْ؛ طنجة بخير.

قبل أن يتكلّم بولز، نظر شزراً إلى شكري:

- الرسائل تصل حتّى خلال الحروب. بل في الحروب تصل الرسائل سليمة. هذه الرسالة أعطاها لي ساعي البريد بوغالب. مدّها لي يداً بيد رافضاً أن يضعها في صندوق الرسائل.

علّق تينيسي:

- آه، بوغالب، كيف حاله؟ لابد أن أكلّمه عن طرد بريدي، يضمّ رسائل وأعداداً من مجلة "بلاي بوي"، سيرفضون تسليمها لي؛ لأنها باسم تينيسي، وليس باسمي الحقيقي الموجود في جواز سفري.

بحيوية قفزت جين:

Twitter: @ketab_n

- غداً سيعود بوغالب، وأكلّمه في الأمر، ففي الأسبوع الماضي، كان هنا؛ ليسلّمني رسالة من شخص أميركي، لا نعرفه، لكنه قدّم نفسه في الرسالة بأنه قرأ روايتي" سيدتان حازمتان"، وشعر بالنفور من لغتها وأحداثها. ومع الرسالة، بعث رواية تحمل عنوان "رحيق في غربال" لكاتبة لا أعرفها، تُدعى "كمالا ماركاندارا"، وهي هندية حسب صورتها، والتعريف المقتضب المثبت على الغلاف. وكتب في ورقة صغيرة: "هذه فكرتي عن الرواية الجيدة".

سأل تينيسي، وهو يبتسم:

- وهل هي رواية جيدة فعلاً؟

- الكاتبة شابّة هندية جميلة، بشكل مدهش. لكن بولز أخذ مني الرواية، وشرع في قراءتها.

- نعم، لقد قرأتُ القسم الأكبر منها، وهي رواية مهمّة فعلاً. سرد مدهش، وتفاصيل الحياة الهندية التي لا نستطيع نحن السيطرة على حبكتها. يبدو أن الكاتبة تعيش في لندن. المهم كل مَن يقرأ سيشعر بأنها تعيش في الخارج، في أوروبا؛ لأنني شممتُ رائحة تقنيات السرد الأوروبي.

مدّ بولز الرواية إلى تينيسي، فعلّق قائلاً ما إن قرأ الغلاف، ورأى صورة الكاتبة:

- لها وجه شاعرة.

في هذه اللحظة، خرج شكري عن حياده، فالنقاش لم يعد أميركياً، بل أصبح يقترب من نقاش معرفي حول السرد الأوروبي.

- للهنود تقاليد سرد عريقة منذ ليل الأزمنة، تماماً مثلنا نحن العرب.

بخبث، وجّه تينيسي سؤالاً لشكري:

- ماذا تكتب هذه الأيام، يا محمّد؟

Twitter: @ketab_n

- رواية عنوانها "الخيمة".

- أنتم العرب لم تفترقوا عن الخيام.

- لأن شمسنا حارقة.

تحسّس شكري الكيس الذي أعطاه إياه تينيسي. القميص داخله، كم تمنّى لو رماه على الأرض، وغادر البيت. لكنها ستكون خطوة غير مضمونة. فمصيره كأديب يوجد بين أيدي الأمريكيين. والمغاربة: المرابط طبّاخ بولز، واليعقوبي أصبح أكثر من الأمريكيين في كل شيء.

بقيت جين تراقب الحوار دون تدخّل. وهي نفسها مسّها نصيب من الإهانات خصوصاً حول رواية، عدّها قارئ أمريكي مجهول أنها أفضل من روايتها "سيدتان حازمتان". فقرّرت الشروع في قراءتها هذه الليلة. استرختْ أمام الجميع، واتجهتْ بنظرها نحو القمر، فبدت كأنها تحلم. فجأة دخل اليعقوبي، ووجدهم غارقين في نقاشات وتأمّلات مختلفة عمّا عهده في الجلسات والزيارات السابقة. يعرف شكري أن اليعقوبي كان جالساً في سطيحة مقهى باريس، قبالة القنصلية الفرنسية، ينتظر غروب الشمس. دائماً يجلس في ذلك المكان؛ ليشاهد الشمس تغيب وراء بناية القنصلية.

قال شكر بصوت مرتفع وبإلقاء شبيه بشاعر يقرأ قصيدة:

- نحن نشاهد رجلاً قادماً من وداع الشمس.

جلس اليعقوبي، ومدّ لتينيسي عدداً من مجلة "هيرالد تريبون". شكره تينيسي، وقال بنفس صوت وطريقة محمّد شكري:

- نحن نشاهد الرجل الذي سيرافقني غداً في جولة إلى السوق الداخلي.

ردّ اليعقوبي:

- لقد ازداد السوق سوءاً، لا يمكن زيارته في هذه الأيام. لقد امتلأ بالمتسوّلين واللصوص والداعرين.

Twitter: @ketab_n

استفسر تينيسي بدهشة:

- يا إلهي! العالم يزداد سوءاً.

لم يتمالك شكري نفسه:

- الرجل الذي ودّع الغروب يبالغ. من كثرة ما عشتَ، في أميركا صارت لك المخاوف نفسها.

ظهرت على شكري علامات التوتّر. بولز غير مهتمّ بمشاعر الآخرين. بل في لحظة، بدا غير مهتم حتّى بصديقه وضيف تينيسي. بقيتْ جين تراقب تينيسي وشكري واليعقوبي الذي لم ينبس بكلمة واحدة. أما بولز؛ فهو إمبراطور الليلة. جين تمتلك قدرات تحليلية نفسية فطرية. وقدرتها تلك تفوق بكثير قدرات بولز. جاء المرابط، ووضع طبق سمك رائحته شهية. دفعه نحو تينيسي، وقال:

- هيّأتُ لك - سيد تينيسي - سمكة على الطريقة المغربية.

أما بولز؛ فقد أومأ للمرابط إيماءة تعني: "هات غليون الكيف". أما شكري؛ فسرح في غياهب ماضيه. الحالة تنتابه كلّما تعرّض للإهانة.

لكنْ؛ ما الذي يعنيه ذلك كله في النهاية؟ يعني - ببساطة - أن الروح سفينة جميلة تغرق، يبقى الناس يتحدّثون عنها بعد مرور مئات السنين. وهناك مَن يغوص؛ ليبحث عنها وفيها. وشكري يعود - على الدوام - إلى السفينة الجميلة الغارقة. وإن تردّدت ذاكرته، أو عجزت، يقوم بإتلافها وتمزيقها بنصف زجاجة ويسكي. وإذا لم تنجح هذه الحيل والأساليب كلها، يتخيل أنه يمسك في يده بندقية، ويبدأ في إطلاق الرصاص على جدران البيت، أو يذهب للبحث عن قبر أبيه، فهناك كلام كثير، يريد أن يقوله عند رأسه.

أخيراً يرى محمّد شكري تينيسي وليامز الذي ملأ أسماعه من سنين. فيتوجّه له بالقول:

Twitter: @ketab_n

- تعرف، سيد تينيسي، أنت تشتهي السمكة التي أمامك، وأنا أشتهي الوقوف عند رأس أبي، وهو في قبره. وهذه ليست فكرة تمرّدية تدور في رأسي فقط، بل هي مشهد مسرحي، أريد أن أؤدّيه أمامك، أيها المسرحي الأمريكي تينيسي وليامز. ونهض شكري، ووقف على يديه، وبدأ يصفّق برجليه، ويقول:

- سأقف عند قبر والدي، وأقول له "جيت نزورك، يا بابا".

كان - أيامها - تينيسي يعاني من عقم شديد في الكتابة. فوجد في المشهد الذي أدّاه أمامه محمّد تجديداً للإلهام. ضحك الكاتب الأمريكي حتّى الصخب. الشيء الذي زاد محمّد إبداعاً جسدياً وحركياً مقروناً باللغة والحوار. صمت تينيسي، وأشعل سيجارة، وتبادل النظرات مع بولز، ما معناه أن هذه الحركات واللغة ينقصهما المعنى، تنقصهما المقبرة والقبر. هذا هو المعنى المفقود في هذا المشهد القصير. مفقود؛ لأن شكري لا يعرف قبر والده في المقبرة. لم يزره مرّة واحدة منذ دُفن. وحين سأله تينيسي ويليامز عن مكان قبر والده في المقبرة، أجاب: - القبر موجود في مكان ما من المقبرة، ومن السهل - أيضاً - ألا يكون موجوداً.

كان تينيسي وليامز في تلك المرحلة يريد سماع الكلمات التي يبحث عنها، والتي ستشكّل بداية عمل أدبي. وكان يفضّل انبثاقها من الصمت، لا من الصخب. إنه قادم، وخلّف وراءه الأمسيات الجميلة التي أنارتها مسرحياته في برودواي. لذلك كان كلّما وجد نفسه يتلذذ بمشهدية شكري، يبدأ في ترديد سؤال الواعظ المسيحي "يوحنّا بنيان": "ما الذي ينبغي أن أفعله؛ لكي أنجو؟". والجواب كان على شفتيه:" عليّ أن أغادر الآن".

قبل أن يغادر تينيسي بيت بولز، صافح جين، وأوصاها بتناول الدواء، تاركاً وراءه شكري واقفاً على رأسه، وهو يردّد بصوت مرتفع:"جيت نزورك، يا بابا". كلمات شكري تسمع حتّى في العاصفة. ضحك تينيسي من جديد. وما أضحكه ليس كون شكري الذي أمامه يختلف عن شكري الذي التقى به

Twitter: @ketab_n

صباحا. ما أضحكه هو وقوفه على يديه ورأسه والحركة التي يقوم بها برجليه في الهواء وهو يقول: "جيت نزورك يا بابا".

انحنت جين، والتقطت رسائل سقطت من الجيب الخلفي لسروال شكري، ووضعتْها على الطاولة منتظرة عودة البهلوان إلى رشده. كانت رسائل موجّهة إلى أصدقائه دون شكّ. لم تفلح جين في قراءتها؛ لأنها لا تعرف قراءة العربية. صفّق بولز بيديه معلناً نهاية السهرة، ومنبّهاً شكري إلى المغادرة. بسماعه تصفيق بولز، حضر المرابط؛ لينظف المائدة من الكؤوس، ويحمل السمكة التي لم يأكل منها أحد شيئاً، وخصوصاً؛ ليطرد شكري الذي بلغ أوج نشوته.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-٤-
نسيان الكلمات والأصوات

"كيف يمكن للبشر أن يصمتوا بهذا المقدار، ولهذه الفترة الطويلة؟!
كيف يستطيعون نسيان جميع الكلمات والأصوات التي بدؤوا الحياة
بها، وهم ينقذفون من الأوهام؟ كيف؟!..كيف يمكن ذلك؟!"

عبد الرحمان منيف، "النهايات"

خلال سهرة البارحة، لاحظ الجميع أن بولز كان صارماً مع الضيوف جميعهم، حتّى مع تينيسي القادم من أميركا. حتّى مع الصامتين الذين لم ينطقوا كلمة واحدة. الذين نسوا الكلمات والأصوات. لقد أصبح يشعر بعدم الراحة في وجود الآخرين. فلم يكن هناك ما يدعوه لمشاركتهم في أحاديثهم، وتبادل الأسرار معهم. وعزلته الجزئية البارحة هي مقدّمة لعزلة كاملة، سيرتمي في أحضانها خلال الأيام القادمة. وزاد من حدّة ذلك أنْ لا واحداً كان مستعدّا للعب لعبة الجسر، الشيء الذي جعل الجميع يوجدون داخل روتين سهرة البيت. لكن أكثر ما كان يشغل بولز هو تلك الرسالة التي جاء بها ساعي البريد بوغالب، وهي من والدة بولز، تخبره فيها أنها ستصل رفقة والده إلى المغرب، في الشهر القادم. وبذلك عليه القيام بعدّة أسفار بين اليوم وبداية الشهر القادم، والعودة إلى طنجة في الوقت المناسب؛ لوضع الترتيبات اللازمة لاستقبالهما. كما أن جين ستسافر إلى كاليفورنيا، وكعادتها ستعود رفقة العديد من الأشخاص، منهم حتّى أولئك الذين قاموا بزيارات عديدة للمغرب، ولم يكونوا معجبين به كثيراً. فلماذا يعودون مرّة أخرى؟!

كان بولز ينظر إلى البيانو، الذي جاء به إلى شقّته من أجل العمل،

Twitter: @ketab_n

ويتحسّر. نقله على ظهر حمار من المحل التجاري إلى هنا. لكن الحمار رفض اجتياز بوابة الدار، فسقط البيانو على الأرض، وساعده مغربيان في حمله مجدّداً. وهكذا رُكن البيانو في هذه الزاوية، وهو في أسوأ حالاته، قبل أن يأتي الإسباني، مصلح الآلات الموسيقية، لإصلاح الفاسد فيه.

كانت رأسه مليئة بأفكار موسيقية عديدة، لا يستطيع إنجازها. أفكار عامة، وإيقاعات متنوّعة، جاء بها من الأماكن المختلفة التي زارها في التلال المحيطة بطنجة خلال السنوات الأخيرة. والكرّاسات العديدة والمختلفة الأحجام الموجودة في درج مكتبه تنتظره كل يوم، دون أن يستطيع إخراجها ولمسها والتفكير فيها. كما أنه خائف من شكري. فهو غير مطمئن لملازمته لتينيسي طوال الوقت. ربمّا يريد كتابة كتاب عنه، كما فعل مع جان جونيه "جان جونيه في طنجة". سيسأل اليعقوبي عن الأمر، وسيحذّر تينيسي حتّى يضرب حساباً لتحرّكاته وألفاظه. فلشكري ذاكرة قوية مثل آلة تسجيل، وخيال جامع، يمكّنانه من كتابة كتاب في ثلاثة أسابيع. وسيورّط الجميع أمام قرّاء اللغة العربية، بل واللغات الأخرى، مادام قد بلغه أن مترجماً يعمل على ترجمة "جان جونيه في طنجة" إلى اللغة الفرنسية، وربمّا غداً إلى الإنجليزية.

بدأ بولز يقتنع بأن شكري سيصطاد كل مَن يزور طنجة؛ ليكتب عنه كتاباً: ويليام بورز في طنجة، جاك كيرواك في طنجة، جين بولز في طنجة، ألان غينسبورغ في طنجة، ترومان كابوت في طنجة، فرانسيس بايكون في طنجة...إلخ. فهذا الشيطان الريفي لا يمكن معرفة أفكاره، فهو لا يُظهرها لأحد حتّى تكون مكتملة وصلبة، ولا يمكن إزالتها، لقد أصبحت موجودة فعلياً. غير أنه يشكّ في أنه يمتلك تلك القدرة كاملة، فحياته مقسّمة بين السُّكْر والكتابة والقراءة. إضافة إلى أنه لن يستطيع الكتابة عن هؤلاء كلهم، وخصوصاً منهم الذي يمرّ من سماء طنجة كالشهاب السريع. ومن جهة أخرى، لن يكتب في مجالات بعيدة عن الكتابة، كالرسم مثلاً. وبذلك لن يستطيع كتابة كتاب "فرنسيس بايكون في طنجة" رغم علمه أن هذا الرسّام

Twitter: @ketab_n

العبقري موجود على الدوام مع أحمد اليعقوبي، يعلّمه الرسم. وأنه - على خلاف عادته - سمح لليعقوبي بزيارته في مرسمه في القصبة، ومشاهدته، وهو يرسم. والدافع في تلك الزيارة أن أحمد كان يجد صعوبات كثيرة في تعلّم كيفية تدبّر صباغة الزيت. إضافة إلى أن أحمد لا يعثر على المواد التي يحتاج إليها الرسّام في طنجة. ففتح بايكون مرسمه أمام أحمد للتدريب على الرسم بالمواد التي جلبها معه من لندن، بكمّيّات جيّدة.

كما أن شكري لن يستطيع كتابة "ويليام بوروز في طنجة"؛ لأن بوروز يتحدّث في المواضيع كلها، ما عدا الكتابة. وأكثر من مرّة قال "بوروز" لـ"بولز" إن شكري كاتب استثنائي، بفضل صفائه النادر، وذكائه الخارق، وإنه قد حدّثه في أمر كتابة كلمة، يصدّر بها ترجمة كتابه "جان جينيه في طنجة" إلى الإنجليزية التي سترى النور قريباً، وإنه موافق، وملتزم بكتابة التصدير. إضافة إلى أن بوروز يظهر ويختفي، ولا يترك وراءه أثراً، يستطيع شكري اقتفاءه. أما ترومان كابوت؛ فهو شبح بالنسبة إليهم جميعاً. فزياراته خاطفة إلى طنجة، وسرعان ما يعود إلى شقّته في بورتو فينو، بإيطاليا؛ حيث يفضّل قضاء لياليه، وتصريف حماقاته. هذا إضافة إلى ضعف فرضية عودته مرّة أخرى إلى طنجة، فقد كان - دائماً - يحاول إقناعنا بأن طنجة تعيش ظروفاً جديدة، ومظاهر العدوانية فيها راشحة، وستتوقف قريباً عن أن تكون مكاناً صالحاً لإقامة الأجانب. كما كان ينصحنا - دائماً - بالانتقال إلى مدينة فاس. يكفي احتضانها لأمكنة طبيعية، ووجود روائح أشجار التين والأرز وأحراج النعناع. فهي مدينة تعيش عصرها الذهبي. وفعلاً كان يثيره هدوؤها، فضجيج حركة المرور فيها لا يتعدّى أصوات الأجراس المعلّقة على أحصنة العربات التي تقطع الطريق الفاصل بين "باب بوجلود" و"الملاح". ولن ينسى - أبداً - أنني كتبتُ فيها إحدى رواياته. وهو يذكر اليوم الذي وصل فيه إلى فاس عند الغروب. ومنذ ذلك اليوم، وكل شيء يتبدّى له أشد غرابة وأكبر حجماً ولمعاناً عشرات المرّات قياساً إلى طنجة.

Twitter: @ketab_n

أما تينيسي؛ فصيد ثمين، والطعم في صنّارة شكري وفير. لذلك فـ"تينيسي وليامز في طنجة" كتاب ممكن جدّاً. وهناك - حسب بولز - عدّة عوامل مساعدة. تينيسي سيبحث عن بيت أو فيلا للإقامة فيها. وشكري سيبحث معه. تينيسي يحبّ الغلمان، وشكري جسر إليهم. تينيسي يتردّد كثيراً على مركز البريد لاستلام الطرود التي تصله من العالم كله، وشكري صديق لساعي البريد بوغالب. إذنْ؛ شكري وتينيسي لن يفترقا لحظة واحدة، وتلك هي المادة الخام للكتاب.

نام تينيسي تلك الليلة في غرفة هادئة، ورأى حلماً. وكان من عادته أن ينهض ويدوّن الأحلام التي تنتابه. رأى طرقات وسلالم وأشجار زيتون وخيزران. شعر بسعادة هادئة، التي هي - أصلاً - في جوهر الحلم. وعلى التوّ، نهض من فراشه، وتوجّه إلى المكتبة، وأخرج غلافاً كبيراً، فيه مجموعة هائلة من القصص القصيرة. شغّل موسيقى مغربية أندلسية، يستمع إليها كثيراً قياساً بالأغاني الأخرى، وبدأ يقلّب الأوراق، ويرتّب القصص. بقي وحيدا يقلّب الصفحات والرفوف دون أن يشعر به أحد، فالمنزل تتّسع أرجاؤه لحركاته؛ بحيث لن يشعر به أحد. في تلك الفترة، كان قد نشر قصّة قصيرة بمجلة "بارتيزان ريفيوز". وجد القصّة ضمن المجموعة. لم يذكر كيف احتفظ بها. ربمّا في فترة فاصلة بين سفر وسفر. وهي قصّة، وصف فيها مشاهدات من شمال إفريقيا. وبين أوراق الملف، وجد مقالة صحفية عن رواية "اجري أيتها الخراف اجري" لصديقه الروائي "غوردن ساغر". وهي مقالة، استاء منها ساغر كثيراً. وهو روائي يحبّ المغرب كثيراً، وإذا ما استعصت عليه الكتابة فيه، قام بتعويضه بإيطاليا. كما عثر - أيضاً - على مخطوطة مسرحية "في المنزل الصيفي" لزوجته جين. كم كانت تبحث عنها. وعلى مخطوطة لعمل موسيقي من تأليفه، نسخته بيدها صديقته الموسيقية "بيغي كلانفيل هيكس" بخطّها الواضح. ثمّ زفر بأسى "إيه، تلك العبقرية التي كان يضربها زوجها "ستانلي بايت" على الدوام، ويترك آثار دمائها على الحيطان". حين شعر بالتعب، وبعودة النوم إليه، أعاد كل شيء إلى مكانه، ورجع إلى السرير. فغدا يوم جديد.

Twitter: @ketab_n

في الصباح الباكر، استيقظت جين، وعملت كل ما في وسعها لاجتناب إيقاظ بولز. هيّأت الفطور بنفسها، وهو عبارة عن خبز، اشترته من السوق، زيت زيتون، جلبه المرابط من عند أحد بائع الزيوت في بادية محيطة بطنجة. جلست تتناول فطورها في الصالون الذي جمع أصدقاء الأمس. وشرعت في قراءة رواية "رحيق في غربال". كانت تعيد قراءة الجملة مرّات ومرّات. فالكاتبة شاعرة فذّة، وعقلها مليء بالحكايات، وعينها ملتقطة ماهرة. أحسّت بالكآبة والخمول، فالطقس في الخارج يبعث على ذلك. سمعت هسيساً منخفضاً، فالريح تهسهس وتحرك أشجار الأوكاليبتوس وأجمات الخيزران التي تحد الشوارع. تلك الأشجار التي تصغي جين كل ليلة لأصوات الزيز المختبئ فيها. للتغلّب على حالة الكآبة والخمول، ارتدت جين ملابس الخروج، وتوجّهت نحو مركز المدينة للسير سيراً متاهياً. مرّت أمام فندق جرترود شتاين، فيلا فرنسا، وكان يغصّ بالسيّاح. هل جرترود هنا؟ أم أنها رفقة أحد الرسّامين؟ فقد أخبرتْهم الأسبوع الماضي عن رسّام سريالي هولندي، يقيم في طنجة، يُدعى كريستيان توني. ودعتْهما للقائه رفقة صديقته "أنيتا". لكن بولز أبدى موافقته ظاهرياً فقط. فهو - كما قال لجين - يتوقّع لقاء رتيباً مع هذا الرسّام الهولندي. فما الجديد في الأمر؟! رجل هولندي سيريهم لوحاته الواحدة بعد الأخرى. وماذا بعد؟! رغم أن جيرترود أكّدت أنه رسّام مهم، يجيد رسم المناظر المغربية. وفي النهاية، ورغم الممانعة، زار بول مرسم الهولندي، وشرب جعة رفقة أنيتا صديقته، أنيتا وجيرترود المبشّرة به.

وجدت جين نفسها أمام مركز البريد دون قصد منها. فقد بدأت تنتابها حالات من السهو. دخلت المركز، وبدأت تبحث بعينها عن صديق شكري، بوغالب ساعي البريد الذي يشبه رجلا إسبانياً. أخبرها أحد أصدقائه أنه غادر المركز منذ ساعة، ولن يعود إلا في الرابعة زوالاً. أكّدت جين على الموظّف أن يخبره بضرورة المرور في المساء إلى بيت بول بولز. وسرّ هذه الدعوة أن جين سمعت من شكري أن بوغالب يكتب قصصاً قصيرة، وأشعاراً.

Twitter: @ketab_n

وهي عائدة إلى البيت، تذكّرت ما قاله بولز عن طنجة: إن "سحرها كامن في توبوغرافيتها التي تزخر بمشاهد حلمية نموذجية: شوارع مغطّاة، كما لو كانت ردهات تفضي أبوابها إلى غرف في كل جهة". أين هي الشوارع المغطّاة التي امتدحها بولز؟ بقيت جين تمشي تحت الظلال، مجتنبة لسعات الشمس التي لا تتحمّلها. إضافة إلى شعورها بالتعب، فهي - أيضاً - لم تستطع النوم في الليلة الفائتة. جين تفضّل شتاء طنجة على صيفها. يروقها اعتكاف الشتاء الاضطراري، وهي تسمع صوت الريح، وهي تزمجر، وتصفع نوافذ البيت. تستمع للعاصفة طيلة الليالي، وهي تحني أشجار الشوارع.

مرّت جين من أمام مقهى إسباني، وصلتها رائحة البن المطحون القوية، فهي تؤمن بالعلاج بالروائح. دخلت المقهى، وطلبت من النادل الإسباني كأس قهوة مركّزة من البن نفسه الذي شمّتْ رائحته. تكلّم النادل بالعربية قبل أن يستدرك، وينطق بجملة ترحيبية بإنجليزية ضعيفة. فكّرت جين أن المغاربة على حقّ حين لا يعدّون الإسبان أوروبيين. لم تتوقّع أن تقوم بتعديل في برنامجها؛ إذ خروجها من البيت كان بغرض السير في جميع الاتجاهات، ثمّ العودة، والاستحمام والجلوس مع بول لمعرفة برنامجه الأسبوعي؛ إذ إنه في تلك الأيام كان قد عقد اتفاقاً مع شخص مغربي للذهاب في رحلة إلى الجبال، لاستكمال برنامج تسجيل موسيقى جبلية مغمورة. ولقول الصراحة، فجين لم تكن موافقة على تلك الرحلات، كما أوضحت لأمّها ولصديقاتها في الرسائل. فبولز كلّما ذهب إلى جبل، أو صحراء، عاد بدون تسجيل. يعود متعباً ومتذمّراً وساخطاً، ويعلن أمامها عدم تكرار تلك التجربة، فعوض تضييع الوقت والجهد والمال في رحلات فارغة، سيجلس؛ ليكتب رواية جديدة، اختمرت في رأسه. لكنه سرعان ما يعتزم تكرار التجربة، آملاً النجاح في التجربة الجديدة. وذريعة نجاحه هو أن السلطات المغربية أوصلت الكهرباء إلى تلك المناطق. لقد أصبح هو نفسه بطل أسطورته هذه.

لكن بولز مصرّ هذه المرّة، كما في السابق، على خوض تجربة جديدة خلال هذه الأيام، فوالداه - كما أخبراه في آخر رسالة - سيقدمان إلى طنجة

Twitter: @ketab_n

مع بداية الشهر القادم. تحسّست جين حقيبتها استعداداً لمغادرة المقهى، لكن رائحة البن المطحون جعلت قشعريرة نشوة تسري داخلها. رفعت يدها عن الحقيبة، وسرحت في ملكوت جديد. لا شك أن البن قد أعاد إلى وعيها يقظة، جعلتها مسرورة ببرنامج اليوم. جاءها إحساس أن المقهى باخرة من تلك البواخر التي استقلّتها من أميركا، أو برشلونة، إلى طنجة؛ حيث جمعتها تجربة عيش مشترك مع أناس، لا تعرفهم، من الجنسيات كلها، ومن مختلف المهن والوظائف. كانت تلك الرحلات تكلّل بالنجاح؛ لأنها تشعر أن المرض يغادر جسدها، فتبدأ في تجربة عيش جديدة، كأنها ولادة ثانية.

وهي سارحة في ملكوتها الخاص، تناهى إلى مسمعها موسيقى كلاسيكية، يبرز فيها عزف بطيء للبيانو. تذكّرت هذه المعزوفات الخالدة التي لم تسمعها منذ سنوات طويلة. موسيقى حميمة وقريبة من العقل قبل القلب؛ بحيث تُولّد لديها انطباع بأنها هي مَن ألّفتها دون دراية منها. شكرت الله؛ لأنها ما تزال قادرة على الاستمتاع بالموسيقى، وبهذه الظلال التي تُنعش النفس. رفعتْ بصرها، وتأمّلت فضاء المقهى الذي وجدتْه نموذجاً للمعمار الإسباني. على الحائط لوحة لسالفادور دالي. اللوحة هي نفسها المنشورة في مجلة "بازار هابر" الموجودة بأعداد كثيرة في مكتبة بولز. تحسّست جين حقيبتها من جديد، فلاحظت وجود شيء داخلها على شكل كتاب. حين فتحت الحقيبة وجدت رواية "رحيق في غربال". وشرعت على التّوّ في قراءتها، مع النظر إلى صورة الكاتبة على الغلاف بين الفينة والأخرى. بعد قراءة بضع صفحات، نادت على النادل؛ لتؤدي ثمن القهوة، وتغادر، لكنه لم يسمعها. أرادت الخروج للسير في أزقة طنجة، لكنها لم تستطع، فعادت لقراءة الرواية. وحين تثيرها في الرواية فكرة أو شخصية ترفع نظرها إلى لوحة سلفادور دالي المعلّقة على الحائط. وحين اقترب النادل من جين، قالت له:

- ألم تفكّروا في شراء بعض الزهور، ونثرها على الطاولات، إنها موحشة هكذا بلا زهور.

Twitter: @ketab_n

- أنتم الأمريكيون تنثرون الزهور حتّى على الأسرّة. لقد دخلتُ بيوتكم، وأقمتُ في فنادقكم. أما نحن الإسبان؛ فلا.

نظرت جين إلى طفح جلدي حادّ في يدها، وفكّرت في ألا تترك تعليق الإسباني دون تكملة:

- غداً سأعود، ومعي ما يكفي من الزهور.

- شكراً سيدة جين، بلّغي سلامي إلى السيد بولز. لقد التقيتُه الأسبوع الماضي في "ريتز". كان يسأل عن بيت صغير، يريد شراءه. هل وجدتُم ذلك البيت؟

تصرّفت جين كما لو أنها لم تسمع شيئاً من فم النادل. فبولز في بحث دائم عن البيوت. يريد الابتعاد عن صخب المدينة. بيت يسمع فيه الموسيقى، ويكتب الروايات والقصص. في تلك الأيام، كان كل الرسّامين والكتّاب والموسيقيين يمتلكون بيوتاً، يكتبون فيها، ويرسمون، ويضعون الألحان. بول لا يقلّدهم، أو ينافسهم، فهو كان - دائماً - في طليعة مَن يمتلكون بيوتاً إضافية، هي عبارة عن ورشات للكتابة. لكنهما كانا قد تشاورا في امتلاك فيلا ذات مساحة كبيرة حتّى يفعل كل واحد ما يشاء دون أن يشعر به الآخر.

مَن ينظر إلى جين يظن أنها امرأة عسراء، فقد كانت تتصفّح الرواية بيدها اليسرى. وبها كانت ترفع كأس القهوة إلى فمها، أو ترفع خصلة الشعر عن جبينها. بدأت تسمع أصواتاً سريعة ومتتالية في الخارج. "أصوات في المدينة" رواية رائعة للكاتبة الهندية "أنيتا ديساي". هي كل ما تعرف من الكاتبات الهنديات. لكنْ؛ كيف لم تجادل باسمها أمام بولز الذي ظل يمتدح أمامها رواية "رحيق في غربال"؟ لا تعرف حقاً. ومهما يكن من أمر، فإن الإطالة في هذا الموضوع لن يُولّد في نفسيتها إلا الضجر والحزن. هي تحبّ "أنيتا"، هذه الكاتبة الشابة الواعدة؛ لأنها أجادت الحديث عن القيود المجتمعية الخانقة، وعن الصراع بين الهنود والمسلمين. هذا إضافة إلى اشتراكهما في

Twitter: @ketab_n

حبّ الشاعرة "إميلي دكنسون". وتبقى "أنيتا"، في نظر جين، كاتبة برعت جدّاً في الكتابة عن الهند الجريحة المقسّمة إلى بلدين: الهند وباكستان. شبكت يديها فوق صدرها، وفكّرت في الأسى الذي يجتاح الكاتب حين يقارَن بغيره، ويخاف أن يكون غيره أفضل منه. يشعر كأن ناراً أُضرمت داخله، ولا يعرف كيف يخمدها.

على رصيف الشارع المحاط بالأشجار، وفي الجهات الظليلة، بدأت الطيور تتنادى. سمعتْها جين، وفرحت. فبدأت تتمايل برأسها المليء بالأفكار والأحلام والمخاوف. تتمايل برأسها تماماً، كما تفعل حين يعزف بولز أمامها قطعة مستوحاة من مسرح تينيسي. وكان بولز يعلّق حين يراها تتفاعل مع ألحانه:

- هذا لحن صافٍ، وصفاؤه من صفاء أفكار وشخصيات تينيسي.

نعم، إن تفاعلها مع أصوات الطيور يتمّ بفضل صفاء أصواتها. بل إن الألحان التي يضعها الإنسان تظهر بهيئة أن كل ما فيها خطأ، إذا ما قُورنت بهذه الأصوات الطبيعية التي تجعلها تفكّر بطلاقة. بدأت جين تتساءل كيف يمكنها مغادرة المقهى، والطيور تضاعف من أصوات وموسيقى ندائها على بعضها. ترى ماذا تقول؟ هناك مَن توصي بالاعتناء بصغارها. وهناك مَن تنادي ذَكَراً. وهناك مَن ينادي أنثى. ومَن يقول إنه تناول وجبة لذيذة في الحقول المجاورة. ومَن يشتكي من أصوات طنجة المتنافرة. ومَن يسخر من سكّير خرج مترنّحاً من حانة. ومَن يقول إن امرأة مريضة ووحيدة تُنصت إلى لحن أصواتها، وتتفاعل معه. ويردّ طائر آخر: أكثروا من ألحانكم؛ لتتعافى السيدة جين بولز.

شغلتْها الأفكار الشعرية عمّا يجري حولها. فأخذت تحفر في أعماقها، مثلما يفعل نقّار الخشب بالخشب، بشجرة عالية في غابة كثيفة. وبسرعة أعادت رواية "رحيق في غربال" إلى الحقيبة، ونهضت في اتجاه مركز البريد. ففي مثل هذه الساعة، يكون بوغالب هناك، كما أخبرها شكري. تاركة وراءها الطيور تغنّي، تماماً كما تسمعها كل فجر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-٥-

في المكان الذي تشعّ منه السعادة، وتنفجر الأحزان

"...وفي الأعلى، سماء صفراء، وغيمة لا تكاد تبين...أ تراها تكون عصفوراً أم صقراً؟ ربّما كانت ظل الموت الذي يقترب.".

نديم غورسيل، "صيف طويل في إسطمبول"

طيلة الأسفار التي قام بها بولز إلى أوربا وأمريكا كان يشعر بتأنيب الضمير. يحسّ أن قلبه يقف ضدّه، وأن لونه لم يعد أحمر، بل لم يعد موجوداً تحت ضلوعه اليسرى، هناك في مكانه الذي تشعّ منه السعادة، أو تنفجر الأحزان. كان يرى أحلاماً، بطلتها حبيبته جين المريضة. وحين يستيقظ، يجد نفسه غارقاً في العَرَق بعد ليلة طويلة وثقيلة الوطأة. فيهرع إلى الحمام؛ ليغتسل، ويزيل رائحة العَرَق، ويعيد لجسده حيويته. بعد ذلك، يمسك قلماً وورقة، ويكتب رسالة إلى جين. يتكرّر هذا الأمر أينما وُجد على هذه الأرض.

ذات صباح، نهض من سريره، وتوجّه مباشرة إلى مركز البريد، لوضع رسالته إلى جين، فوجد المركز مغلقاً. لم ينتبه أنه يوم عطلة عيد وطني. كان في لشبونة يقيم في بيت ترومان كابوت. عاد خائباً وحزيناً، فما لم يضع الرسالة في الصندوق، سيظل الشوق يأكل قلبه. الأمر يشبه السِّحْر، فحين تُوضع الرسالة، ينتهي الشوق، كأنه عانق جين، وضمّها إلى صدره.

عاد، وجمع حقيبته، وقرّر العودة إلى طنجة على متن باخرة، لا يغادر بخارها سماء المتوسّط أبداً. فوجد جين في رعاية صديقه تينيسي. يذكر كيف أنها عانقتْه بقوّة، لوقت طويل، وبكت بين ذراعيه مثل طفلة. كان على وشك البكاء، فقد لاحظ أنها مصابة بنوع من الانتفاخ بفعل تناول

Twitter: @ketab_n

الأدوية. لكنها كانت في كامل أناقتها، كأنها تنتظر الموت، وهي كما هي جين الجميلة. وحين مسحت دموعها، أنعشت نفسها بكأس من الويسكي. مدّت كأساً إليه، وآخر إلى تينيسي. دائماً تبقى محافظة على قدرتها على تقديم الخدمة للآخرين. تناول الكأس، وقال في نبرة تشبه الصراخ:

- نخب الإقامة الدائمة قرب جين. لا سفر منذ اليوم.

لذلك حين قرّر السفر إلى جنوب المغرب، والطواف على القرى والجبال لتسجيل وجمع ذخيرة من الألحان والإيقاعات والأغاني، شعر بالخجل من كونه ينكث عهداً قطعه على نفسه أمامها وأمام تينيسي. هي لن تعترض، لكن ضميره سيكون سيّد المعترضين. ذكّرته جين بموعد وصول والديه إلى طنجة. كان قد نسي هذا الأمر الهام الذي أدخل سروراً نادراً إلى قلبه. التفت إلى تينيسي، وسأله:

- منذ متى لم تر والدي؟

- لا أذكر، بالضبط، لكنْ؛ يمكن القول إنني نسيتُ صورتيهما، ونبرة صوتيهما.

- في نظركَ، تينيسي، كم من الوقت يقتضي نسيان إنسان ما؟

- عشر سنوات؟ عشرون؟

نهضت جين، ورفعت قنينة الويسكي:

- هل تريدان المزيد؟

مدّ تينيسي كأسه، فيما رفض بولز متحجّجاً بكونه سيسافر غداً إلى الجنوب.ثمّ نظر إلى جين محاولا قراءة ردّ فعلها. لكنها توجّهت بالسؤال إلى تينيسي:

- هل تنسى شخصيات رواياتك وقصصك؟

- من الصعب نسيانها. لا أستطيع، فأنا أتذكّرها دائماً أكثر ممّا أتذكّر

Twitter: @ketab_n

الأشخاص الذين يعيشون معي.

أطلق تينيسي تنهيدة جعلت جين تكفّ عن سؤاله مرّة أخرى. وضع الكأس بيد مرتعشة، ثمّ سرح في ملكوت رواياته وقصصه ومسرحياته، يتذكّر شخصياتها وأفعالها وأقوالها. فيما رفع بولز من صوت الموسيقى، وهو يعضُّ بأسنانه على شفتيه. رفع الكأس، وشرب ما بقي فيها من شراب، وهو يردّد الألحان بصوت مسموع.

سأله تينيسي:

- ما نوع الموسيقى التي تريد تسجيلها في جنوب المغرب؟

بيده اليسرى، انشغل بولز بإدخال الأزرار في فتحات قميص نومه.

- لا أطمح إلى تسجيل لون موسيقي واحد. ينبغي أن أعمل في الاتجاهات كلها حتّى لا أعود - مرّة أخرى - للبحث عن تلك الألحان والأهازيج والإيقاعات. فرصة واحدة كافية للإلمام بكل شيء.

- بأي لغة تُغنّى تلك الأغاني؟

- بالأمازيغية، وقليل من الدارجة المغربية. لن أجد صعوبة في هذا الأمر. سيرافقني التمسماني، وهو يتحدّث الأمازيغية. والأهم من ذلك، هو مسلم. الناس في المغرب يعطون أهمّيّة قصوى لهذا الجانب الديني. تستطيع أن تقول إن وجود شخص مسلم معي، يجعلهم يشعرون بالثقة والاطمئنان.

- هل يوجد بينهم شعراء؟

- نعم، نعم، بكثرة. بل إن الرجل يصبح شاعراً في الحين. لم أر أقواماً يستطيعون ارتجال القصائد مثلهم. شيء مدهش حقاً. هل ترافقني، يا تينيسي؟

- لا، عندي موعد مع شكري غداً صباحاً، من أجل البحث عن فيلا للكراء.

- تصبحان على خير، ليلة سعيدة.

Twitter: @ketab_n

حين بقي تينيسي وجين وجهاً لوجه، قرّرت جين انتهاز الفرصة لمعرفة رأيه في العديد من الأمور الأدبية، منها رأيه في ما قاله بولز عن رواية "رحيق في غربال". لكن تينيسي بعد برهة صمت، سألها بغرابة:

- حين تنظرين جنباً، تبدين حزينة، يا جين. كم عمرك اليوم؟

- كم تظن؟

- خمسون سنة؟

- أحسنت.

- هل تذكرين متى جئتِ إلى طنجة؟

- منذ الأبد. الناس - دائماً - يعتقدون أنهم وُجدوا - دائماً - في الأمكنة التي يحبّونها.

- أراكِ تحملين معكِ رواية "رحيق في غربال".

- ما رأيكَ فيها؟

- سمعتُ من بول أنها رواية جيدة. لكني كنتُ سأتحمّس لكاتبتها، لو كانت تكتب بلغتها الأم. أنا حذر تجاه كاتب يكتب بغير لغته. أين خدمة الأدب الوطني من الأمر؟ هل تتصوّرين هيمنغواي يكتب بالإسبانية مثلاً، وهو أميركي؟

- نعم، معك حق. حتّى من الناحية النفسية. انظر إلى محمّد شكري مثلاً، لقد كتب سيرته باللغة العربية، ولم يجد ناشراً ينشرها. فقام بول بترجمتها إلى الإنجليزية، وسمعتُ أن كاتباً مغربياً يعمل على ترجمتها إلى الفرنسية. لكن شكري لن يطمئنّ حتّى تُنشر بالعربية، ويقرؤها المغاربة، الطنجاويون منهم على الخصوص. فهو يخاطبهم مخاطبة صريحة منذ الصفحة الأولى. وتلك المخاطبة تستمرّ مستترة طيلة صفحات الكتاب. إنه كتاب جرح وحكمة، ونَشْرُه بالعربية أفيدُ من نشره بأي لغة أخرى.

- متى ينشره بالعربية؟ عنوانه كما قال لي بول "من أجل الخبز وحده"؟

Twitter: @ketab_n

- نعم "من أجل الخبز وحده". لكنها في الإنجليزية لا تعني الشيء الكثير. بل قل لا تعني شيئاً. وقد حدّثني شكري عن صيغة في رتبة العربية ، وفي اللهجة المغربية ينوي نَشْره بها؛ لأنها تؤدي دلالة الكتاب، أظنها "الخبز الحافي".

- يظهر لي شخصاً شقياً جدّاً.

- نعم، لكنه ذكي وطموح، وسيصبح من كبار الكتّاب في المغرب. هل قرأتَ كتابه عن جان جونيه؟

- لا، ولكنْ حدّثني عنه ويليام بوروز.

- إذا رأيتَ شكري يرافقكَ في كل مكان، ويهتم بأفكارك وأحاديثك، فاعلم أنه سيكتب عنك كتاباً.

- هذا ما فعله مع جونيه؟

- نعم، وأكثر. سجّل كل شيء، حتّى مشية جونيه البطيئة، وإدخال يديه في جيبه، في أثناء السير، وملابسه المهملة، ونظراته التي كان يوجّهها إلى سطيحة مقهى سنترال...سجّل كل شيء عنه. إنه روائي شاب بارع.

- وكيف تعرّف إليه، فأنا أعرف أن جونيه يتضايق كثيراً من معرفة الناس؟

- وهذا ما كان يعرفه شكري، أو على الأصح، هذا ما أُخبر به. فقد قيل له إن جونيه يمكن أن يصفع شخصاً اقترب منه، أو مدّ يده لمصافحته. ومع ذلك، أصرّ على التعرف إليه. فربطت بينهما صداقة من أصفى وأجمل الصداقات التي عرفتُها.

نعم، إنه أمر مدهش كيف تعرّف شكري إلى جونيه، وكيف قبل به هذا الأخير منذ اللحظات الأولى، وكان حينها شكري لم ينشر سوى قصتين في مجلة "الآداب" البيروتية. ومع ذلك، قدم نفسه لجونيه باعتباره كاتباً مغربياً. أما جونيه؛ فكان قد أصدر كتابه الذائع الصيت "مذكّرات لص". ولم يكن تُرجم إلى اللغة العربية بعد. وكان يزور طنجة رغم أنه يكرهها، ويعدّها مركزاً

Twitter: @ketab_n

للخيانة والخَوَنَة. فقد زار مُدُناً جميلة عدّة في العالم، لذلك كانت تبدو طنجة في عينيه رتبة أدنى من مُدُن آسيوية أجمل منها بكثير.

توجّه تينيسي إلى جين بالسؤال، وكأنها على معرفة تامة بدقائق العلاقة بين شكري وجونيه:

- هل كُتُب جونيه مترجمة إلى العربية؟

- لا، العرب لا يمكن أن يُترجموا جونيه، بسبب حساسيتهم الأخلاقية المفرطة. و"من أجل الخبز وحده" لشكري يعرف نفس المصير. فالناشر العربي رفض طبعه، بسبب نفس الحساسية الأخلاقية. لذلك تجد أن غربة هذا الكتاب هي أنه كُتب بالعربية، ونُشر بالإنجليزية، ولاحقاً بالفرنسية. سيأتي دور نَشْره بالعربية، ولكنْ؛ ليس في هذه المرحلة. فاليوم ليس لي، أو لك، أو لبولز، أو جونيه، أو شكري، أو بوروز.

- كيف دخل شكري إلى قلب جونيه بهذه السرعة؟

- الجواب موجود في كتاب شكري "جان جونيه في طنجة"، لقد بسط أمامه ثقافته الفرنسية، حدّثه عن ستاندال، وكامو، وسارتر. فيما انكشف جهل جونيه بالأدب العربي، باستثناء كاتب ياسين الذي كانت تربطه به صداقة. وقد واجهه شكري بهذه الحقيقة: كيف لا تعرف طه حسين وتوفيق الحكيم رغم أنهما مُترجمان إلى الفرنسية.

- وماذا كان ردّ فعل جونيه؟

- جونيه في مثل هذه المواقف يصمت، أو يمدّ يده؛ ليودّعكَ.

- وكيف هي علاقة جونيه ببولز؟ لا أعرف عنها شيئاً.

- بولز يقرأ جونيه، ويقدّر أسلوبه تقديراً عالياً. لكنه يردّد أمامي أنه لا يتعلّم منه شيئاً.

- وشكري؟

Twitter: @ketab_n

- شكري يخفي أسراره بإحكام. لكنني ألومه؛ لأنه طيلة مرافقته لجونيه لم يكشف لنا الشيء الكثير. فما قاله عن جونيه نعرفه جميعاً. كان مثلاً، بذكائه وقدرته الخارقة على التسلّل، لصاً مثله، يسرق منه بعض الأسرار التي يخفيها جونيه. كان "براين جيسن" يقول بأن هناك جونيه ثالث بعد اللص والكاتب العبقري. يقصد أن جونيه متعلّم جدّاً، بل ويعرف اللغات كالإغريقية واللاتينية. وشكري لمس أنه جونيه يعرف الإسبانية، لكنه يُنكر الأمر. أ لم يقض فترة في شبابه في لشبونة؟!. يخبّئ جونيه سرّاً عظيماً، لم يكشفه شكري، وهذا ما كان عليه فعله في كتابه، ولم يفعل.

- أنا أحتاط من جونيه. وصلني بأنه قال بأنه يكره كل ما أكتب. يعدّني كاتباً غير مهم. الغريب أن أحكامه مَبنية على مقالات، قرأها عني، وليست مَبنية على تبيّن نقدي خاص به. عندما كنتُ في باريس كلّمتُه هاتفياً، كان مريضاً، واتّفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي، لكنه لم يأت، فقد اشتدّ عليه المرض.

- جينيه يكره الأمريكيين، يقول إننا نأكل مثل طائراتنا أينما كنا، في فيتنام، أو الشرق الأوسط، أو في المطاعم. وعندما يسمع موسيقى لم ترقه، يقول إنها تشبه طريقة مضغ الأمريكيين للطعام. والناس يصدّقون ما يقول. إنه يحظى بسمعة طيبة في العالم كله، باستثناء فرنسا طبعاً.

- ما سرُّ مجيئه المتكرّر إلى طنجة؟

- لا يمكث فيها مطوّلاً، يأتي، يفعل الخير مع الناس، يلتقي بعض الأشخاص في المقاهي والبارات. يحبّ كثيراً التردّد على السوق الداخلي. يتقزّز كثيراً من مظاهر الحياة والبؤس هنا. ثمّ يرحل مخلّفاً وراءه زوبعة من الحكايات والإشاعات وأفعال الخير التي تضخّم منه ككاتب وإنسان. ونحن ماذا يشدّنا في طنجة غير صورتها حين كانت

Twitter: @ketab_n

مدينة دولية؟!. الآن انظر، عدد المتسوّلين يتزايد، والجرائم تقضّ مضاجع الناس أينما كانوا. وقد ساد الاعتقاد لدى الناس - هنا - أن كل أجنبي يزور طنجة، فمن أجل الدعارة اللوطية فقط. لذلك تجد بولز قد حدّ من العلاقات هنا. طنجة اليوم مدينة مخنوقة وملوّثة، بالمعنى المادي والمعنوي للكلمة.

ما يزال ضوء غرفة بول مضاء. فكما هي عادته يصعد قبل الجميع، ويضيء الأباجورة، ويشرع - كما أخبر جين - في كتابة "قصص عن المغاربة". وإذا ألّف بول كتاباً عن كيفية تأليفه لقصصه ورواياته سيُطلع القارئ على أغرب الطرق في الكتابة. يبدأ بحكايات، واستشهادات، وجمل بسيطة، مع تدخين للكيف الذي يوفّر له لحمة فعّالة، يربط بواسطتها بين الأجزاء المختلفة. فالكيف يثير داخله المحفّزات. بهذه المنهجية أصدر حكاياته "مائة جمل في الباحة"، التي صدرت بغلاف، عليه صور لغليون الكيف.

ظهرت علامات التعب على جين، ففضّل تينيسي الصعود إلى غرفته؛ لينام، فغداً يوم جديد، كما يقول الأمريكيون. شعر بالأفكار تتطاير في عقله كالفراشات. هذه ليلة مناسبة للحلم في سرير، تصله من بعيد أصوات حفيف الأشجار، ونعيق البوم. أصبح على قناعة تامة بأن كل ما قيل في هذه الليلة رفقة جين سيدخل صفحات كتابه القادم دون شك. فالتذكّر والتخيّل متطابقان في الدماغ. جين امرأة عظيمة، تشفي نفسها بنفسها، ورغم مثابرتها على تناول الأدوية، فإن ما يشفيها هي روحها وعقلها. هذا إلى جانب ممارستها للرياضات: الصعود المبالغ في الدرج، والهبوط منه، رغم عدم وجود أسباب لذلك. الذهاب إلى شاطئ طنجة، والسباحة في أوقات كثيرة من اليوم، هذا إلى جانب رغبتها الدائمة في مرافقة بولز إلى الجبال، والركض من قرية إلى قرية مثل امرأة مبحوث عنها. فقد كان تينيسي يراها في مرّات عديدة واقفة على قدم واحدة، وهي تعدّ من واحد إلى مائة. وفي بعض الأحيان، كانت تعدّ الطعام في المطبخ، وهي واقفة على قدم

Twitter: @ketab_n

واحدة. لكنها حين تفتر عزيمتها، وتعزف عن نشاطها الرياضي، يظهر عليها الهزال والكآبة والشحوب. فتدخل مغامرة المستشفيات والحقن والأدوية. الحياة - فعلاً - ليست عادلة. أما بولز؛ فقد كان يظهر على هامش مشاكلها. هذا ما يؤاخذه عليه تينيسي. الشيء الذي يضيف قطرة من المرارة إلى مآسي جين الصحية.

حين أراح تينيسي جسده على السرير دار حوار طويل بين رأسه والوسادة. حضرت إلى ذهنه حركة العربي التي لا يمكن أن يقوم بها سوى قرد، وهو يضع السمكة المشوية على المائدة. فعلّق بولز، وهو يدخّن:"المنتصر سيأكل المنهزم". نحن لسنا منتصرين. صائد السمك هو المنتصر، ونحن مجرد وسطاء بينه وبين السمكة المنهزمة، قال تينيسي في ذهنه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-٦-
نيران تلتهم الأجسام

" أحياناً أرى وجهه حزيناً جدّاً. ولكنني أعرف أن هذا الحزن - بالنسبة له - حزن لذيذ أيضاً. أعرف أن هدوءاً وصفاء كُلّيين في عقله؛ لأنه يدرك أنه لا يشبه أحداً في الشارع، لا بسحنته، ولا بملابسه السوداء".

علي بدر، "أساتذة الوَهْم"

بدأ بولز يفكّر جدّيّاً في فتح حوار صريح مع تينيسي، بخصوص زوجته جين. فوجود جين معه طوال الوقت خطر على صحّتها. هذا دون حاجة إلى الدخول إلى عقل بولز، وتصفّح أوراقه الغزيرة. إن ترك امرأة مريضة مع رجل مقبل على الحياة بشكل نشيط أمر غير سليم. فهو يذكر جيّداً كيف حوّل تينيسي، منذ عشر سنوات، جين إلى خرقة بالية. فقد كانت معه كل يوم بفندق سان بيتش وسط كؤوس الخمر والكراسي الفارغة. والنتيجة كانت هي خضوعها لعمليتين جراحيتين خلال بضعة أشهر. غدت جين نحيفة جدّاً، وفريسة لنوبات الأرق. صحيح أن تينيسي كان منشغلاً بحالتها الصحية السيئة، وقلقاً على أفق مرضها الذي بدأ يتّسع بشكل غريب. لكن قلقه هذا كان ينبغي أن يتحوّل منذ البداية إلى حماية لها، لا جرّها إلى سلسلة من العبث الذي لا ينتهي. خصوصاً وأن بولز كان رفقة ألان غينسبورغ في مراكش، ورأى حريقاً مهولاً يلتهم الجهة الجنوبية بكاملها من الأسواق المحيطة بـ"جامع الفنا". تلك النار نفسها، وربما في اليوم نفسه، كانت تلتهم جزءاً مهماً من جسد جين، وتينيسي يتفرّج.

Twitter: @ketab_n

حالة جين الصحّيّة عرّضت حياة بولز لتغيّر كبير. فالعيش الذي كان ممتعاً تحوّل إلى عيش مليء بمسلّمات المرض والموت الوشيك. وحين يأتي أصدقاؤه من أميركا: بوروز، غينسبوغ، كابوت...إلخ يشغلون يومه وليله عن رعاية جين التي تحتاج إلى مراقبة مستمرّة. ثمّ يعودون، ويبقى هو غارقاً وسط تجربة سوداء مليئة بصور جين في حالات مرضها وانهيارها وأرقها .

كانت والدة جين واعية بهذا الأمر، فقد كانت تتفرّج من بعيد على المرض، وهو يأكل من جسد ابنتها كل يوم وليلة. فزياراتها المتكرّرة لابنتها في طنجة جعلتها تقف على طبيعة الحياة التي تعيشها رفقة رجل يحبّها، ولكنه يحبّ أشياء أخرى أكثر منها. لذلك كانت تقوم بحملات قوية؛ لكي تقوم جين بالعودة إلى أميركا، أو على الأقل، ردّ الزيارات. تماماً مثلما كان يفعل والدا بولز معه. لكن بولز كان يرى أن نيويورك أخطر على جين من طنجة. واستطاع أن يقنع والدتها بذلك؛ بحيث اتفقا - في الأخير - على القيام بزيارة لها ولوالديه معاً في الفترة نفسها. وفعلاً، قام بولز وجين بالذهاب إلى أميركا، عبر إسبانيا؛ حيث مكثا لبعضة أيام عند أحد معارف جين. قاما بزيارة والدة جين ووالديه. وبعد أن لاحظ أن جين بدأت تتخذ إيقاعاً حياتياً مختلفاً ومدمّراً في نيويورك، وضعها على متن سفينة متوجّهة إلى جبل طارق. وقد اتّخذ قراره هذا بعد أن شرع في أنشطة مكثّفة، ستشغله عنها. وهذا أمر سيّئ للغاية؛ إذ إنه بدأ يعمل مع تينيسي على وضع موسيقى لمسرحيته الجديدة "لم يعد قطار الحليب يتوقّف هنا".

في البداية، رفضت جين العودة، لقد سحرتْها - من جديد - حياة نيويورك بلياليها وعدد أصدقائهما بها؛ حيث إنهما كانا يمضيان كل ليلة عند صديق. وهذا أمر مرهق لهما معاً، خصوصاً بعد أن اعتادا حياة طنجة الهادئة والبطيئة الإيقاع. وحين شرع بولز في عمله الفني مع تينيسي، قرر إقناعها بالعودة إلى طنجة، على أن يلحق بها بعد أسبوعين. وذلك كان هو رأي تينيسي وغينسبورغ معاً. لكن قوّة الإقناع كانت في يد والدتها التي توصّلت إلى

Twitter: @ketab_n

قناعة أن حياة ابنتها ونيويورك شيئاًن لا يلتقيان، وأن طنجة ستقدّم أحسن ما تملك لجسد جين المنهك.

لا يخاف بولز على جين من جين، بل يخاف عليها من الآخرين. فأصبح كلّما اضطر إلى السفر من أجل العمل، لا يتركها وراءه في المغرب. فمثلاً حين كان يعمل على تأليف كتاب عن المُدُن العالمية، سافرا معاً إلى نيويورك، فوضعها على متن قطار متوجّه إلى فلوريدا وواصل هو رحلته عبر الباخرة إلى التايلاند. فالسماح لها بالبقاء في طنجة في ذلك الصيف - رفقة تينيسي وبوروز وكابوت وغينسبورغ، الذين كانوا في زيارة طويلة إلى طنجة - أمر غير مضمون النتائج. كانا ينتظران وصول سوزان سونتاغ، لكنها لم تأت. فسوزان امرأة متوازنة وحازمة، وتحب جين، وتحاول - دائماً - إقناعها بنشر قصصها، وتشجّعها على الاستفادة من وتيرة الحياة اليومية في طنجة التي تتميّز بالفراغ اللامحدود، حسب تعبير سونتاغ، الضروري للكتابة والتفكير.

لكنْ؛ يمكن التفكير في فرضية أخرى قابعة في عقل بولز العميق؛ تينيسي يأتي إلى طنجة في أيّ وقت يشاء، صيفاً أو شتاء. فكلّما أنهى مجموعة من الأعمال التي كانت تُثقل كاهله يفكّر في السفر إلى طنجة، وجين المريضة موجودة في طنجة، وبولز المنهك بمرض زوجته موجود - أيضاً - في طنجة. فما العمل؟ اتفق بولز مع جين، كما يتّفق زوج مع زوجته، حول ضرورة أن يصارحا تينيسي بالأمر. فهما - أيضاً - لهما أعمالهما التي تؤرّقهما طوال الوقت، ويفكّران في مشاريع أدبية وفنية وحياتية، يضعانها في أفق حياتهما، ومن غير المناسب لهما استقبال كل القادمين من شقاء أميركا طوال فصول السنة. واتفقا - أيضاً - على أن يعمل تينيسي على نشر هذا الوضع بين أصدقائهما في أميركا، نساء ورجالاً، فنانين سينمائيين وموسيقيين ورسامين وشعراء وروائيين وراقصين وفلاسفة. كلهم عليهم أن يعوا أن جين آور بولز لم تعد كما كانت، وأن الأيام والأحوال قلبت بولز رأساً على عقب، وأصبحا يتعافيان في الصمت والعزلة والفراغ الهائل الذي قدّرته حق تقديره سوزان سونتاغ.

Twitter: @ketab_n

وأن جين لم يعد بمقدورها - رغم مهارتها وتجربتها الطويلة في الطبخ - إعداد بعض الأطباق الاحتفالية للقادمين إلى طنجة عبر البواخر والطائرات، وكان أحد تلك الأطباق التي يفتقدها بولز بنفسه طبق البطّ بالليمون. وكل ما أصبح باستطاعتها القيام به هو إعداد طبق متواضع، يساعدها على إعداده زوجها، مع جرعات متكرّرة من زجاجة السكوتش التي تضعها بجوارها في حوض غسل الأواني. وحتّى تلك الوجبة الزهيدة لم يعد بمقدورها إتمامها. لذلك ارتأى بولز إعفاءها من دخول المطبخ، فجلب لها خادمة، تقوم بأشغال البيت، تسهر على تناولها الدواء في الموعد، وتبقى إلى جانبها حتّى تنام مثل طفلة تعبت من اللعب.

استقبل تينيسي الوضع الجديد بسعادة، أ ليس الأمر يتعلّق بصحّة وحياة امرأة، يعدّها واحدة من أكبر كتّاب النثر في القرن العشرين؟ لكنه اشترط عليهما تناول آخر وجبة عشاء في بيتهما، فوافقا بسعادة. خرج بول إلى السوق بنفسه، واشترى سمكا وبطّة وكل أنواع الخضر التي وجدها أمامه. دون أن ينسى زجاجة ويسكي من النوع الذي يفضّله تينيسي وجين. وفي أثناء تناول العشاء، ظل تينيسي يردد عبارات الثناء: "لم أذق في حياتي بطا بهذه اللذة"، هذا أعظم عشاء تناولته في حياتي"، "ماذا تفعل جين لهذا البطّ حتّى يصبح بهذه اللذّة؟"...لكن جين لم تكن حاضرة؛ لتسمع كل هذا المدح. فمنذ زمن طويل، وهي نائمة في سريرها.

استعان تينيسي بمحمّد شكري، للبحث عن فيلا للإيجار. وشكري استعان بساعي البريد بوغالب الذي يعرف طنجة جيّداً. على تينيسي أن يترك بولز وجين داخل ملكوتهما الصغير الهادئ. وعلى كل الأمريكيين المذكورة أسماؤهم أن يحذوا حذوه. لكن محمّد شكري هو أكبر المتضرّرين من هذا التقنين. وتينيسي بقي ينتظر الفرصة لإبلاغه، إلى أن أتت بنفسها حين سأله شكري:

- هل ستنهي إقامتك عند بولز وجين؟

Twitter: @ketab_n

- جين مريضة، وبولز مشغول بترجمة المسرحيات، وبأعمال أخرى، وكل مَن يزورهما دون موعد أو سبب، فهو متطفّل ومزعج. لقد أصبح بولز يخاف على جين، خصوصاً في الصيف حين تأتي قبيلة البيتز، برئاسة غينسبورغ. فكلّما تكاثر أفراد هذه القبيلة، تكاثرت السعادة. لكنْ؛ ينبغي أن نعترف بذلك، يتكاثر - أيضاً - التعب والتدمير الذاتي. وجسد جين لم يعد يقدر على تحمّل ذلك. فجين كلّما أزاحت عنها ظلال التعب، تحاول العودة إلى الكتابة، لكنها تفشل، وذلك ما يزيد من شقائها، ومن تعاسة بولز. صحيح أنه كان غزير الإنتاج، لكنه يشعر - دائماً - أنه رهن تصرّف أشخاص آخرين، من جنسيات متعدّدة. وأنا أفهم شقاءه الخاص. على أصدقائه كلهم أن يبتعدوا عنه، ويجتنبوا الالتصاق بحياته.

شعر شكري، وكأن تينيسي يقصده بكلامه. فقد ظل طيلة سنوات شبه ملتصق ببولز، إذا استعمل كلمة تينيسي. غير أن ذلك الالتصاق كان بقصد الإثمار، بقصد العمل في الكتابة والترجمة. فلولا شكري لعجز بولز عن إنجاز بعض الأعمال. فقرّر الدفاع عن نفسه، فهذا الأمريكي سيذهب إلى نيويورك، ويشيع عنه أن شكري - إضافة إلى مغاربة آخرين - يزعجون عزلة بولز وزوجته، إلى درجة غير معقولة.

- هذه الدراما كلها تحدث بالقرب منا، ونحن غير شاعرين؟

- لا، لا، ليس دراما، فقط مرض جين يعني قطيعة في برنامج حياتها، وبولز في حاجة إلى تبنّي خطة عمل مركّزة، وجديدة. فطلبات العمل تصبّ عليه من الجهات كلها، كالرياح، أو لنقل كالأعاصير. وهو لا يعرف كيف يبدأ.

- بولز يعدّ طنجة مدينة سِحْرية. فمنذ ١٩٣١، وهو يتسكّع فيها. إنها - حسب تعبيره - المكان الذي يرغب - دائماً - أن يكون فيه أكثر من أيّ مكان آخر. فشمال إفريقيا يتّسم - في نظره - بطابع أسطوري. أليس من وحيها كتب روايته "السماء الواقية"؟!.

Twitter: @ketab_n

- نعم، صدى الأغنية الشعبية: "هناك في الأسفل وسط أشجار النخيل الواقية". إن أشجار النخيل تقي الناس، والناس واثقون من حمايتها لهم. إنها جَدَلية سلسة، وعفوية.

- يبدو لي أنك - يا تينيسي - تبحث عن سماء واقية في طنجة؟

- نعم، يا محمّد، أكون ممنوناً، لو وجدت لي فيلا صغيرة، أقيم فيها لفترة. فقد كلّمتُ اليعقوبي في الأمر، لكنك أنت مؤهّل أكثر؛ لأنك

- حسب ما قال لي اليعقوبي - تعيش - باستمرار - في طنجة.

- هيا، انهض، أظن أن سماءك الواقية موجودة عند وكالات الكراء.

كان شكري يحمل في يده مسرحية تينيسي المترجمة إلى العربية "قطّة على نار". حديثهما عن جين وبولز أنساه أن يُطلعه على المسرحية. فجأة ظهر أمامهما اليعقوبي كالعفريت الخارج من الظلام. ساروا ثلاثتهم تحت شمس حارقة. أين السماء الواقية؟ تساءل تينيسي في نفسه. لحق بهم باكسه مرافق تينيسي، ذلك التمثال الجامد.

قالت لهم الفتاة المغربية في الوكالة الأولى إنهم يتوفّرون على شقق فقط. نظر تينيسي إلى شكري، وتبادلا نظرات الرفض. غادر اليعقوبي الوكالة مفضّلاً الوقوف على ناصية الشارع. ما يزال باكسه جامداً مع آلة تصويره. ساروا حتّى بلغوا وكالة ثانية، يقف الإسباني المكلّف بها على عتبة بابها مفضّلاً الهواء الساخن في الخارج على الهواء الحارق في الداخل. فوجدوا لديه ثلاث شقق شاغرة. بدا تينيسي متضايقاً. فهو على طول الطرقات والشوارع، وعلى الروابي المحيطة، يرى فللاً من الأحجام كلها، تطل من وراء أسوارها الأشجار، ويصل نباح كلابها إلى أبعد نقطة في المدينة. في تلك اللحظة، شغل شكري نفسه بالنظر إلى خريطة تخطيطية قديمة عن شوارع طنجة، ومقاطعاتها. مرّ بيده على زجاج الخريطة، فامتلأت بالغبار. نظر إلى تينيسي، فأومأ إليه بالمغادرة.

حين غادروا الوكالة، قال تينيسي لشكري إنه حدس بأنهم لن يجدوا شيئاً

Twitter: @ketab_n

عند الإسباني، بسبب قذارة وكالته، لذلك تراه في الخارج هارباً من بشاعة الأثاث المليء بالغبار والقذارة.

مَن يرى هذه الجماعة تخرج من وكالة، وتدخل إلى أخرى، وتحاول أن توقف سيارة أجرة دون جدوى، يظن أن شيئاً ما يحدث. لكن الأمر في منتهى البساطة، يقوم به جميع الناس في العالم أجمع. هذه الرؤوس المجتمعة والمتردّدة تسمع وتنظر وتبحث دون توقّف. تبحث عن السقف الواقي، الذي سيختبئ تحته كاتب، ظلَّ يبحث عن ظلٍّ، يقبع تحته. اشتدّت الحرارة، واستمرّت الرؤوس المجتمعة تبحث عن ظلٍّ، يوحّدها.ترى أين سيجدونه؟ قال محمّد شكري في نفسه:"الظلّ موجود في مرح تينيسي". بدأ يسير إلى جنبه، كأنه يحتمي فعلاً بظلٍّ وارف. أما صاحب "قطّة على نار"؛ فظلّ يلتفت بحثاً عن سيارة أجرة، تقيه من الحريق القادم من السماء التي فوق رأسه. أصبح يفكّر في شيء واحد: الذهاب هو ومرافقه إلى الفندق. ظلّ تينيسي يرفع يده لسيارات أجرة تمرّ مشغولة، الشمس الحارقة منعت الناس من التنقّل سيراً على الأقدام. وفي النهاية، وصلوا إلى مفترق الطرق القريب من البريد المركزي؛ حيث تمكّنا من إيجاد واحدة تنتظر في الظلّ. ركب تينيسي بسرعة، وكأنه غير مصدّق، وتبعه باكسه. لوّح تينيسي لشكري واليعقوبي، والسعادة تغمر وجهه.

فتح شكري واليعقوبي ذراعيهما لطنجة. عندما دفع شكري باب الحانة، واليعقوبي وراءه، أدهشتْه الرحابة. استرسل بكل رحابة داخل ما يشبه حلم اليقظة. الكراسي والطاولات الناعمة الثوب هادئة وفارغة. وجوه هي لسائقي سيارات أجرة تدخّن وتحدّق في الفراغ. يعرفهم شكري في السوق الداخلي. شعر براحة داخلية رغم أنه لا يملك درهماً واحداً في جيبه. اليعقوبي هو الداعي، وهو مَن سيدفع. وماذا سيدفع في أقصى الحالات؟ دراهم بالكاد تملأ قبضة اليد. فضّل شكري الانتقال إلى طاولة جنب النافذة، وتبعه اليعقوبي. فقرب النافذة - حسب اليعقوبي الرسّام وشكري الكاتب - توجد

Twitter: @ketab_n

الآفاق العظيمة. فعندما يشرب المرء بيرة جنب نافذة، يدفعه ذلك إلى الحلم . منذ أن استيقظ شكري، وطيلة تجواله مع تينيسي، وهو يحلم بطعم الفاكهة السائلة المُسكرة. أما اليعقوبي؛ فيفضّل "زلافة البيصر" مع خبز القمح.

تحوّل شكري إلى رجل صامت جدّاً، ظهرت قسوة جديدة على وجهه، في عينيه، على الخصوص. وبدأ يجتنب توجيه النظرة إلى نادل الحانة، ما يزال عليه دَين ثلاث زجاجات في نهاية الأسبوع الماضي. اليعقوبي - أيضاً - يبدو مثل قوقعة، إنه - فعلاً - شخص لا يريد تبادل مشاعره مع أحد. لكن ملامح شكري تتبدّى للرائي أكثر صلابة من ملامح اليعقوبي.

مع بداية الليل، كان شكري قد تعب من حرارة طنجة المفرطة، كأنها محاطة بالبراكين. من أين هذا اللهيب، إن لم يكن يخرج من فوهات البراكين غير المرئية؟!. أما الحمم الخانقة؛ فهي تلك التي كانت فوق سقوف الحانات. شكري يطالب طنجة - في مثل هذا الأوقات - بأن تجيب بصوتها عن أسئلته. طنجة أكلت كل شيء فيها، وما تزال جائعة.لم يبقَ إلا أن يقول كل شيء عنها، هو المُطّلع عل جميع أسرارها، والشاهد على زوال عهدها الذهبي.

Twitter: @ketab_n

-٧-
مسائل شخصية

" استيقظ بيرد صباح الأحد متبيّناً بدهشة أن نافذة غرفة النوم مفتوحة على مصراعيها، وفي غرفة الجلوس مكنسة كهربائية تخرُّ. شعر بضيق من هذا النور غير المألوف، ومن نفسه، وقد اعتاد عتمة البيت. ارتدى بنطاله وقميصه بسرعة، وانتقل إلى غرفة الجلوس." .

كنزوبورو أوي، "مسألة شخصية"

المارُّ من أمام بيت بولز في الخامسة صباحاً سيرى ضوءاً ساطعاً من نوافذ الغرف العلوية. إنه يقضي أوقاتاً طويلة في ترتيب حقيبة سفره، وأجهزة تسجيل الأغاني. أما كل من في داخل البيت؛ فسيرى الإنهاك على وجهه المستطيل النحيف. فهو لم ينم ما يكفيه؛ ليواجه رحلة، من أجل عمل، يعني الشيء الكثير، بالنسبة إليه. فقد اتفق مع مكتبة مؤسّسة "غوغنهايم" للحصول على منحة للقيام بتسجيل ذخيرة من الألحان المغربية. ويذكر جيّداً كيف أن المسؤول عن الفن في السفارة الأمريكية بالرباط قرأ التقرير الذي تقدّم به، باهتمام، ثمّ رفع عينيه عن الأوراق المليئة بالجداول والعناوين، وحدّق في وجهه، ثمّ قال إنه عمل على غاية من الأهمّيّة. لم يصدّق بولز ما سمعه بأذنيه، ورآه بعينيه. فلا أحد قبل هذا الموظف قدّر مشروعه حقّ قدره. لذلك كلّما تردّدت في ذاكرة بولز أصداء تلك العبارة، ازداد عزمه على الشروع في العمل.

كان بولز قد نقل آلة بيانو إلى البيت، عليها ألّف العديد من الألحان التي استوحاها من جولاته في محيط طنجة. وها هو، بفضل "بيغي غلانفيل

Twitter: @ketab_n

هيكس"، التي قامت بحملة لمساعدته على الحصول على منحة "روكليفر" لتسجيل الموسيقى المغربية. فلولاها لما تمكّن من الحصول على تلك المنحة، فالأمريكيون لا يهتمّون بوجود أية موسيقى في هذا الجزء من العالم.

قام بولز بتنقّلات مهمّة ومتكرّرة وحاسمة إلى واشنطن للقاء المسؤولين على مصلحة الموسيقى، بمكتبة الكونغرس. كما أن السفارة الأمريكية بالرباط التزمت بأن تُرسل إليه آلة موسيقية ضخمة، تُسمّى الآمبيكس. استحق على ذلك احتفالاً دون ضجّة، جمعه هو وجين وأحلامهما التي تملأ الأفق. لم تستطع جين تلك الليلة مقاومة جاذبيته، فها هو الرجل الذي قام برحلات عديدة إلى أقاصي العالم، يجلس أمامها في مطعم خال إلا من بعض الفرنسيين والألمان المقيمين بطنجة منذ سنوات، كما أخبرهما بيدرو صاحب المطعم. كانت ليلة شديدة الغرابة، بالنسبة إليها. فبولز الصامت، الشارد في أحلامه، الهائم بين قبائل أصدقائه في كل العالم، يستمع للموسيقى، ويدخّن سيجارته، وهو ينظر إلى عينيها، ويُمسك يدها التي يضغط عليها بين الحين والآخر. من أجل هذا، غيّرت جين من حياتها كلها. كان يمكن أن تكون قرب والدتها، ترعيان بعضهما، أو تكون شابة عازبة، تعيش في شقّة صغيرة وجميلة بنيويورك، مع كل العزلة التي يعنيها ذلك. تتحكّم بتفاصيل حياتها. لكنها فضّلت العيش هنا، في شمال إفريقيا، قرب هذا الرجل النحيف الذي يدمدم أمامها - الآن - بألحان غير مفهومة.

تعاملت جين وبول بولز مع تلك الليلة باعتبارها أمراً شديداً، وقويّ الدلالة. وستبقى جين - على الخصوص - تتذكّر هذه الليلة، وكأنها ترى شعاعاً من الضوء الساطع. حين سألها بول عن رغبتها الآن، أجابت بأنها ترغب في زيارة المتاحف، والاستماع للموسيقى، والسباحة. لكنْ؛ لا وجود لأيّ متاحف في المغرب. والموسيقى أمر مقدور عليه، فأصدقاؤهما الأمريكيون يجلبون معهم كل جديد موسيقي، من أميركا وأوربا. أما السباحة؛ فشواطئ طنجة تُشبع رغبةً مثل هذه.

Twitter: @ketab_n

نظر بولز ملياً إلى جين، فاكتشف - لأول مرّة - أن لها وجه امرأة، أضاعت شيئاً ما.

- وجهك - يا جين - يلمع بنور نادراً ما رأيتُه.

- لا، أشعر أن لي وجه متسوّل.

- هل قرأت رواية إريش ماريا ريمارك "ليلة لشبونة"؟

- نعم، قرأتُها، واحتفظت منها في ذاكرتي بعبارة "إن حياة المهاجر هي حياة كاهن هندي متسوّل".

- لقد تصفّحتُها هذه الأيام، ولاحظتُ أن مَن قرأها قبلي، أو بعدي، وضع خطوطاً بالقلم الرصاص على مجموعة من الجمل والفقرات، منها جملة الكاهن الهندي المتسوّل. من وجهة نظر ريمارك أنا - أيضاً - متسوّل.

- لا، لا، يا بول أنت قدّيس، ينشر النور، ويشرب الويسكي، هاهاها.

- هل أنت مَن وضع تلك الأسطر، وكتب في الهوامش؟

- نعم، أنا. تجذبني جمل روائي مثل ريمارك، أو هيمنغواي، أو فيتزجيرالد التي تلخّص - بكثافة إنسانية - الإيقاع المأساوي في العالم. مثلما تجذبني تلك المقاومات التي يقوم بها شخصان، أحبّا بعضهما، من أجل إعادة اكتشاف الحياة.

حين أنهت جين كلامها، رفع بولز نخباً على امتداد ارتفاع يده، كَمَن يحمل بندقية، وقال معترفاً:

- قدرتك هذه على الربط بين الأدب والفلسفة هي التي جذبت اهتمام تينيسي. فقد كان يقول لي - ونحن في نيويورك - في غمرة عملنا على مسرحياته، حين كان يجد نفسه مضطراً إلى تغيير جملة بجملة، أو لفظةٍ بلفظة، كان يقول إن جين ما كانت لتعجز في وضع كهذا. لها قدرة على وضع الفلسفة في النثر. وهي قدرة غريبة داخلية، لا يمتلكها غيرها.

Twitter: @ketab_n

أشارت جين بيدها إلى قلبها:

-تلك القدرة موجودة هنا.

نظر بول إليها، وخفض بصره، يقلّب أصابعه، كأنه يحصيها. ما دار في رأسه، يمكن قراءته: يتحوّل الإنسان في لحظات محاطة بظروف غامضة، إلى خلية متحفّزة مهيّأة للاشتغال الفكري القوي والمتتابع دونما توقّف. فيصبح بعيد النظر إلى درجة غريبة.

لم تنتظر جين أن يقوم بولز بتلك الخطوة. فعودته بالموافقة على تخصيص منحة لتسجيل الأغاني من السفارة الأمريكية بالرباط، اعتبرته حَدَثاً عادياً، لا يستحقّ الاحتفال. مثلما أن رفض تخصيص تلك المنحة لا يستحقّ الحزن والإحباط. لكن موافقة مكتبة الكونغريس تعني لبول الشيء الكثير: إنه يعي أمريكيّته.

اختفى النادل، فنادى عليه بولز، بصوت عال شبيه بنداءات الشخصيات المسرحية على بعضها، في أثناء التدريب، حين يكون المسرح فارغاً إلا من المشتغلين على المسرحية. عاد النادل بعد أن كان في طريقه إلى مائدة عشاء أخرى، يجلس عليها شابّان في غاية الهدوء. طلب منه بولز أن يقدّم لهما زجاجة نبيذ فاخرة مع بيتزا متقنة.

- هذا كله من أجل سعادتنا التي أريدها الليلة سعادة أنانية؛ أي أن تقدّم الخدمات لنا وحدنا دون الآخرين.

- لكنْ؛ يا بول، جمالية الليلة أن تكون مع الآخرين، لا أن تكون وحدك مثل حائط يتردّد منه بعض الصدى، من حين إلى آخر. هكذا يشعر النادل حين يقدّم خدمات لمائدة واحدة.

حين بدأ الشابّان الهادئان يتحدّثان، عرف بول أنهما ألمانيان. فسأل جين:

- هل استطعتَ - يوماً - تعلّم الألمانية؟

Twitter: @ketab_n

- لا، لماذا؟

- حسناً فعلت؛ لأنه لو خصّصوا لك أفضل مدرّس لما تحمّلت هذه اللغة ساعة واحدة. أنا لا أستطيع فَهْم هذه اللغة، كما أتصوّر أنني لا أستطيع إفهام أفكاري للآخرين، باللغة الألمانية.

- وكيف قرأت وفهمت إريش ماريا ريمارك؟

- - قرأته بالإنجليزية.

- وكيف استطاع المترجم نقله إلى الإنجليزية. موقفك هذا يتطلّب مراجعة. وأرجع موقفك العدائي هذا إلى المرارة التي تركتها في نفسك برلين، التي قلت لي إنها مدينة بشعة، كانت تهدّد وجودك.

- هل رأيت؟ رأي تينيسي فيك صائب. أنت تتفلسفين أكثر منا جميعاً.

- يهمّني رأيك أنت، وليس رأي تينيسي. بالمناسبة هل وجد الفيلا التي يبحث عنها؟

- هو يعوّل على شكري، وشكري يعوّل على ساعي البريد الذي يُدعى بوغالب. غير أن شكري يبدأ برنامجه بالشرب، ويُنهيه بالشرب. فمتى سيجدان الفيلا، إذنْ؟

رفع بولز كأسه إلى أعلى ما استطاع، وأفرغه في جوفه دفعة واحدة. فسألته جين:

- مَن وشى لك بشكري، المرابط؟

- نعم.

- المرابط يكره شكري.

- من أين عرفت؟

- أ لم تلاحظ أنهما لا يتبادلان الكلام حين يزورنا شكري؟

- لقد لاحظت ذلك، لكنْ؛ فسّرتُه بكون المرابط لا يُحدّث أحداً حين يفرط في تدخين الكيف.

Twitter: @ketab_n

- شكري - أيضاً - يبالغ في شرب الويسكي، لكنه يبقى مهذّباً، ويتواصل مع الجميع. إنه يعي جيّداً معنى أنه ضيف.

- شكري ضيف؟ لقد أصبح مقيماً معنا، وإني أخاف أن يكتب عنّا - أو عني وحدي - كتاباً شبيهاً بالكتاب الذي كتبه عن جان جونيه.

- لقد وضع كتاباً جيّداً عن جونيه، وإلا لما قدّم له بوروز. أنا قرأتُ الكتاب، ووجدتُه صورة متكاملة عن اللص.

- ليس كتاباً عن جونيه اللص، بل عن جونيه الكاتب الخارق.

- المهم أنه كتاب نظيف وشيّق.

لم يرغب بول في متابعة النقاش عن جونيه وشكري. ابتسم لحبيبته التي تجلس أمامه. وبدأ يحدّثها عن السعادة الداخلية النادرة التي يشعر بها. فبدأ يغنّي، ويصفّر، ويضرب بأصابعه على المائدة، كما كان يفعل قديماً جدّاً. كان ذلك بمثابة كوريغرافية، صُمّمت جيّداً؛ لتناسب سعادة فنان، يحاول استرجاع زوجته. أما جين؛ فكانت تستمع إلى لحن داخلي، يخرج من كل جزء في جسده. فبعد عدّة أشهر من التعثّر والركود، ظهر - فجأة - حلّ لجميع مشكلات بول، التي - في النهاية - هي مشكلاتها أيضاً.

حدّث بول زوجته جين عن الستة أسابيع التي سيقضيها بعيداً عنها، رفقة الكندي كريستوفر وانكلين، الذي قضى خمس سنوات في طنجة، ويتكلّم اللهجة المغربية بطلاقة. فهذا الرجل الودود والمتحضر قرّر البقاء مع بول حتّى اكتمال المشروع. ورفقة ابن الجبال المقيم - أيضاً - في طنجة، ويُدعى محمّد العربي الجيلالي.

ظهرت على وجه جين مسحة حزن خفيف، رغم أنها حاولت إبداء روح عالية تجاه سفر بول إلى الجبال والصحراء. فخلال ستة أسابيع، ستتغيّر حياتها بالكامل. فكلّمتْه بخصوص الاتصال بجيرترود شتاين التي كانت تقيم في فندقها الاعتيادي "فيلا فرنسا"، الغاص - دوماً - بالسياح. لكن بول أبدى تبرّماً غير صريح من الفكرة. فأعادت جين عليه السؤال:

Twitter: @ketab_n

- هل أتصل بجترورد؟

- لا أعرف بالضبط، هل ستكون فكرة جيدة. فأنت تعرفين أن جترورد امرأة متقلّبة المزاج.

- أخبرني، هل تخفي عني شيئاً بخصوصها؟

- لا أخفي شيئاً، ليس هذا هو التعبير المناسب. لقد سمعتُها أكثر من مرّة تتحدّث بالسوء عن أناس، تظهر لهم الودّ في أثناء تواجدهم معها. لقد سمعتُها تتحدّث عن عزرا باوند. فحين أثرتُ اسمه أمامها انتفضت فجأة:" لن أستقبل عزرا باوند في بيتي مجدّداً". بقيتُ صامتاً، ثمّ تابعتْ بالتوتّر نفسه:" كل ما يقوم به هو الجلوس لنصف ساعة. وحين يغادر يكون الكرسي والمصباح قد تكسّرا".

- هاهاها، عزرا باوند رجل طويل القامة، تغطّي وجهه لحية حمراء. لكنْ؛ هل كان سقف بيت جيرترود واطئاً، إلى حدّ أن باوند يكسر المصباح برأسه حين ينهض؟!

- هذا لتعرفي كم هي لئيمة. فالرجل يعامله الجميع باحترام. جيرترود لا تريد إلا الرسّامين الذين يبيعون لوحاتهم في أشدّ أوضاعهم فقراً وحاجة للمال. والأمر الأكثر شناعة أنها عمّمت على معارفها رسالة، تخبرهم فيها بأنها ستكون في غنى عن صداقة باوند. ما هذا؟ إنه سلوك عَبَثي، يصعب تصديقه.

- إنها طريقة فظّة في الإعلان عن المواقف. أرفض أن يحدث معي ذلك. وإنني - في الحقيقة - رغم سداجتي، أعرف الهدف الجدّيّ الذي لديها. أي مثقّفة هذه التي تحيك المؤامرات ضدّ واحد من أهلها: عزرا باوند.

- جمع المال من وراء أعمال الرسّامين المساكين في طنجة التي تريد تحويلها إلى مَحمية للرسّامين الدائمي الحاجة إلى المال.

بدأت جين تشعر بألم خفيف في الظهر. لكنها واصلت الادّعاء بأنها

Twitter: @ketab_n

بخير. ولا يبدو أن بول لاحظ آثار الألم، أو سمع أنين فقرات ظهر جين. لكنه فاجأها حين قال لها:

- نذهب - الآن - لنكمل السهرة في البيت، ونرقص قليلاً. هيّئي عمودك الفقري للتمايل والدوران.

Twitter: @ketab_n

-٨-
كأس دمع مُرّ

"عندما مات نرسيس، تغيّر غدير لذّاته من كأس ماء عذب، إلى كأس دمع مرّ".

أوسكار وايلد

حين وضعت جين رأسها على الوسادة، استرجعت لحظات السهرة مع بول، وبدت خائفة من أن تكون ثقيلة الظل. لكن سعادة بول ووجهه الأحمر الممتلئ حيوية وتعبيراً كان يقول إنه كان يريد أن يفرش لها البساط الأحمر على الأرض. إن سعادة واحدهما بالآخر ليست مجرّد إحساس، تصنعه الظروف والمواقف، بل هي - بالتحديد - تاريخ، تاريخهما معاً الذي يتأرجح بين كأس ماء عذب، وكأس دمع مرّ. "عندما مات نرسيس، تغيّر غدير لذّاته من كأس ماء عذب إلى كأس دمع مرّ" (أوسكار وايلد). تجد جين نفسها - حسب قصيدة وايلد - حورية تلال، تأتي باكية عبر الأحراش والغاب؛ لتمنح الغدير بغنائها بعض العزاء. أما بول؛ فكان طيلة السهرة مثل نرسيس، يجلس على الضفة، ويحملق في مرآة مياه جين، فكان يرى جماله منعكساً بصفاء.

كانت طنجة تبدو مهجورة، لا أحد. وكل مَن غنّى فيها بصوت عال يسمعه الآخر في أقصى حدودها. لذلك فضّل بول الرقص في البيت. وما إن تفوّه بلفظة "رقص" حتّى بدأ جسد جين يتهيّأ للاهتزاز الأكثر حدّة. كانت الريح تنقل صوت ريح البحر القوية. ضحكت جين حين استرجعت ما قاله لها بول همساً، وهما يرقصان: "أنا وأنت - برقصنا هذا - سندخل معجم الأعلام". مع انتهاء الجملة، شعرت برغبة في طعم القهوة. هيّأت لنفسها فنجانين، واحداً لها، وواحداً لبول، نام قبل أن يشربه.

Twitter: @ketab_n

ما سيقوم به بول غدا تعوّد على القيام به في برلين، حين كان عمره عشرين سنة. تسجيل الموسيقى والألحان، والبحث عنهما أينما كانت هو الجانب الأميركي الأبرز لديه. كان قد وضع الترتيبات اللازمة لمشروعه حتّى قبل الحصول على الموافقة من مكتبة الكونغرس. وقد كان سعيدا أكثر بالشمس التي يكون - دائماً - حريصاً على اجتناب التعرّض لأشعّتها، وهو يجلس في مقهى على ناصية شارع. لكنه ما إن يغادر المُدُن الكبرى؛ حيث الشمس تصيب بضربة حقيقية، حتّى يظهر لديه ذلك الهَوَس الأميركي بالطبيعة. وحين يعود من أمكنة الشمس تلك، يتخذ جلده لوناً أحمر، كما لو كان يحترق. بذلك اللون، كان يعود من برلين على الخصوص. لكن الشيء الذي يجعله مطمئناً أنه سيكون بين المغاربة، الذين يقول عنهم - دائماً - إنهم - حين يكون بينهم غريب أوروبي، أو أميركي - لا يتصرفون تجاهه، كما لو أنهم أعضاء في جمعية سرّيّة، يتعاملون بأشياء، ويتحدثون بلغة وحركات غامضة، لن يعرف سرّها أي أحد خارج المجموعة. له في هذا الأمر تجربة مرّة في ألمانيا وإنكلترا وإسبانيا. وهذا ما كان يُولّد لديه إحساساً بأنه في تلك الأمكنة شخص غير مرغوب فيه. أما هنا في طنجة؛ فالتجربة مختلفة تماماً. إنه بين قبيلته.

استيقظت جين مباشرة بعد سماعها صوت يد بول، وهي تغلق الباب من الخارج. وجدت على المائدة فطور بولز القاتل: طاقماً ضخماً من القشدة، خبزاً شوكولاتة، ومربّى الفراولة، وذلك ما سيشكّل الأساس لآلام الكبد التي ستقضّ مضجعه لسنوات عديدة. تجاهلت جين المائدة، وهيّأت مائدة مغايرة، صحّيّة حسب حالتها وذوقها: زيت زيتون وعسل، ثمّ الخروج إلى أشعّة الشمس في شوارع طنجة، وهي في طريقها إلى مركز البريد.

ألقت جين نظرة على دولاب ثياب بولز؛ لتتأكد من أنه أخذ ما يلزمه من الملابس، فلم تجد القمصان والسراويل. لقد حمل معه ثياباً تكفي لأربعة رجال. فمَن يسمعه يتحدّث عن فوائد شمس المغرب، يظنّ أنه سيبقى

Twitter: @ketab_n

عارياً. القليل من الثياب، الكثير من الثياب، كلا الفكرتين سيئة جدّاً. وحين سيعود من رحلته، ستجد حقيبته شبه فارغة. فثيابه غالباً ما تُسرق منه. والمتّهمون يُنكرون - دائماً - ما قاموا به. آخر سرقة هي ما قام بها رجل يُدعى عبد القادر الذي سرق ثيابه كلها في مراكش، وشوهد وهو يبيعها طيلة أيام في ساحة جامع الفنا.

كما أنها حين علمت أنه ذاهب إلى مناطق جبلية حذّرتْه من شرب حليب الماعز. فلهذا الحليب ذكرى سيئة في نفسه، فبسببه أُصيب بحمّى مالطا، ولازم الفراش في المستشفى الأمريكي بـ"نويلي"؛ ليخضع لسلسة من الفحوصات. كما أوصتْه بحلق لحيته يومياً، فحين يُهملها تصبح بشعة، بسبب لونها الأحمر، وحين صعد لينام في غرفته بعد تلك الرقصة الرومانسية التي تلت عودتهما من المطعم، قالت له: "لا تعد بلحية المسيح تلك". فتوجّهت إلى الحمّام، وعادت، وهي تحمل في يدها موسى الحلاقة. أما بول؛ فكان على قناعة على أنه بعد هذا الأمر الصادر عن جين، فإنه لن يقضي يوماً واحداً دون حلاقة.

تشهد جين أن بولز توجّه إلى الجنوب، بشعور من التفوّق. فاللون الموسيقي الوحيد الذي يقدّره كثيراً هو الطرب الأندلسي، أما باقي الألوان الموسيقية؛ فهي مجرّد تنافر أصوات وصراخ وقفز. وذلك ما سيحكم على مشروعه بالفشل. بل وذلك ما كان وراء معارضة مجموعة من المفكّرين المغاربة لمشروعه هذا. فقد كانت بداية مرحلة التوق إلى التحرّر ومحاربة الكولونيالية ثقافياً وفنياً. كان عليه الاستفادة من الآثار السيئة التي خلّفتها جرتورد، ليس بين المغاربة فقط، بل بين فنانين وشعراء من العالم كله. فالكلّ بدأ يحسّ بأنه أمام امرأة يهودية، وليس فنانة، أو كاتبة، أو مثقّفة. والدليل هو شهادة والدة بولز نفسها، التي نبّهت بولز، وهي تسخر منها: "إنها تبدو كعمود البقلاء. من الأفضل لها أن تحترس. إن ظهرها أحمر كسرطان البحر. لا أصدّق أنها لا تتألم به". ذلك كله مصدره أن جين خائفة على مستقبل

Twitter: @ketab_n

بولز في هذا البلد الذي اختار العيش فيه إلى آخر أيامه من بين مجموع البلدان التي زارها وعاش فيها لفترة، قد طالت، أو قصرت.

لم يسبق لبولز - على الأقل، بالنسبة لجين - أن نطق بكلمة "شرق". فهي غير موجودة ضمن قاموس مفرداته. بل كان يعبّر عنها بمفاهيم أكثر شمولاً وعمقاً مثل "الملحمة اللامعة". وفي مناسبات كثيرة، كان يحاول تحليل بعض ملامح المغاربة، كالتطيّر، وغرابة الطباع، والتعصّب. وقد كانت جين تفهم ذلك، ففي دماء بول تجري دماء الإغريق والرومان؛ حيث الرصانة وبرودة الدم. وتذكّر مرّة عندما كانا في إسبانيا، قال أمام فنانين إسبان إن إسبانيا تتحمّل مسؤولية عظمى في ما وصل إليه العرب اليوم، فحين طردتْهم إسبانيا، عمّ بينهم الجهل، وسيطرت عليهم سلوكيات قاسية وظلامية، ما تزال إلى اليوم. إسبانيا - حسب بولز - مسؤولة عن إنتاج جنس بشري فظّ.

هذه "الفظاظة الشائعة"، حسب تعبيره، على هذه البقاع الجميلة هي ما ظلّ يهمّ بولز. لقد نقلها في قصصه ورواياته ورحلاته ومقالاته وألحانه. إلى درجة أن جين كلّما رأت بولز يدخّن، وهو شارد الذهن والنظر، تقول في نفسها: "لأدعه يتأمّل ما سبّبه التعصّب للعرب من خراب". وحين يُجابَه بالاحتجاج، المتعصّب هو الآخر، من طرف أحد المغاربة، يعود إلى فولتير الذي كان في نظره أهمّ مَن تأمّل في مقالاته مظاهر ونتائج تلك السلوكيات. لكنه يفضّلهم عن الأتراك الذين استعمروهم عندما كانوا في حالة الوَهن. وسبب تفضيله العرب على الأتراك، أنهم يميلون إلى تفضيل العلوم. لكنهم يشتركون في نعتهم للمسيحيين واليهود بال"خنازير". في هذه المواقف - بالضبط - يتحوّل بولز من فنان إلى مفكّر. لكنْ؛ في المجمل كان يؤمن بأن المغاربة - والعرب عموماً - كان يمكن أن يكونوا أفضل حالاً، ممّا هم عليه.

لكن جين كانت على قناعة تامة بأن بولز يتخلى عن أفكاره كلها، ويبدأ من الدرجة الصفر للفكر، ويشرع في الاكتشاف الفطري البريء لكل ما هو في غمرته. لقد كان يقول لها إنه - وهو ذاهب إلى تسجيل موسيقى البادية

Twitter: @ketab_n

والجبل - لا يفيده فولتير، أو رينان، أو فلوبير في شيء، إنه ذاهب؛ ليكتشف بنفسه، وهناك على الطريق مفاجآت، لم يعشها لا هذا، ولا ذاك.

حين خرجت جين من البيت إلى الشارع، شعرت كأنها قطرة ماء سُكبت من إناء إلى إناء، وعين ما ترصدها. إنها رحلتها الاعتيادية من النقطة "أ" إلى النقطة "ب". هذه هي القصّة التي لم يستطع بولز قراءتها. فجين تقرؤها وحدها، وهي تسمع قلبها يخفق، وترى إبرة التخطيط الباني ترسم - ببطء - الصعود والنزول والمنعرجات. صمت يحيط بها في الشارع. الأشجار تحرّكها ريح خفيفة، والسيارات القليلة تمرّ جنبها، والناس يتحدّثون، ولم تسمع شيئاً، فهل عادت إلى زمان الفيلم الصامت؟ إذا قرأ بولز هذه القصّة لن تُعجبه أحداثها ونهايتها.

هذا الصمت ليس خدعة سيئة، فقريباً لن تستطيع سماعَ حتّى صوتها وأنفاسها. قالت شاعرتها المفضّلة "فيسوافا شيمبورسكا" في إحدى قصائدها:"أهزّ الذاكرة - لعلّ شيئاً في أغصانها/ هاجعاً منذ سنين/ ينطلق صافق الجناحين".

أرادت جين أن تتذكّر، لكنْ؛ يبدو أنها طلبت الكثير. وفجأة بدأت تسيل من عينيها دموع هي خليط من الضحك والبكاء. دموع مَن وجد نفسه - فجأة - ينفصل عن شيء، لم يفكّر ذات يوم أنه سينفصل عنه. بدأ تسير بسرعة مثل طائر، يدفع أجنحته بصعوبة وسط رياح قوية. لا يمكنها أن تتذكّر. لا يوجد أي شيء على قائمة ذاكرتها. لكن الثابت فيها هو بولز، فهي خائفة عليه من رحلاته داخل المغرب، فكل شيء خارج طنجة يبوء بالإخفاق. من جديد، حضرت شاعرتها شيمبورسكا من خلال قصيدتها "بورتريه امرأة":

- "عليها أن تكون طوع الاختيار
- تتغيّر كي لا يتغيّر أي شيء.
- هذا بسيط، غير ممكن، صعب، يستحقّ التجربة

Twitter: @ketab_n

- عيناها كما تريد، مرّة زرقاوان، وأخرى رماديتان.".

كان تأليف الموسيقى - بالنسبة لبولز، ومنذ شبابه - هو العمل الممكن. وكانت أسرته - على العكس من ظنه - ترى في الموسيقى عنواناً على العطالة. وإن أمكن لجين إطلاق عنوان على رحلته الحالية إلى الجنوب لتسجيل الموسيقى، لما وجدت أفضل من عنوان أقدم موسيقى بالي، ألّفها من وحي لوحات الرسّام المغمور آنذاك "أوجين بيرمان": " نزهة وحيدة لشاب غريب الأطوار، يجمع ويتأمّل شذرات قديمة". إضافة إلى أن موضوع الرحلة، حسب طموح بولز، كما أخبر جين، ليس - فقط - نقل موسيقى ناس الجنوب، بل - أيضاً - وصف لحياة هؤلاء الناس، رجالاً ونساء وأطفالاً ومجالاً صحراوياً ممتدّاً ومتاهات فكرية نادرة في العالم. تماماً كما كانت موسيقى بالي " نزهة وحيدة لشابّ غريب الأطوار، يجمع ويتأمّل شذرات قديمة" ليست - فقط - وصفاً للوحات بيرمان، بل - أيضاً - لبيرمان الشخص. كانت عبقرية بولز - دوماً - هي النفاذ من الفن إلى الفنان. وذلك ما ظلّت جين تحاول أن تتعلّمه منه. أما ما ظلّت تجتنبه هو أن يؤثّر نجاحه عليها، أن يعميها ضوؤه الباهر.

Twitter: @ketab_n

-٩-
هواء يهبُّ من جهة المتوسّط

" نادى سيّارة أجرة، وتوجّه نحو ملتقى سوق الخيل والبغال القريب من المحكمة.".

داي سيجي، "عقدة دي"

حين غادرت جين الدار الكبيرة، كما كان يسمّيها كل وافد إليها، وكل مقيم، تركت وراءها سكينة شاملة في الغرف والمطبخ والحمّام. أطفأت الموسيقى، وفتحت النوافذ؛ لتدخل الشمس إلى الأرجاء الباردة. منذ أن قدمت إلى طنجة، تعلّمت أن تترك الضوء يدخل. لا يعني ذلك مجرّد فتح النوافذ، بل هو فنّ قائم الذات، شبيه بعمل الرسّام. وهي على علم تامّ بمَن جاء من الرسّامين إلى طنجة، وهيّؤوا إدراكهم وعقلهم ولونهم لضوئها.

مرّت جين - وهي في طريقها إلى مركز البريد ببناية مسرح سرفانتس، تلك البناية الشبيهة بالقصر، والتي لم يتسنّ بعد للزمن هدمها بالكامل. لكنه سيفعل دون مقاومة، فالسلطات المغربية لا تهتمّ لأمر البناية، ولا تعرف مَن يكون سرفانتس، ولا الدولة التي دخلت وخرجت بعد استعمار دام عدّة عقود تاركة وراءها آثاراً عديدة. البناية تذبل تحت الشمس وحيدة. والفن يكاد يحرمه الجميع دون إعلان ذلك صراحة.

كان الهواء يهبّ بارداً من جهة المتوسّط، وجين تعدّ جوّاً كهذا مناسبة للمشي أكبر مسافة ممكنة. فقط ما تخافه هو أن تلتقي أحد أصدقائها، وهي تتجوّل شاردة خالية البال. فكثير منهم هذه الأيام قدموا من أميركا وفرنسا وألمانيا. ولا جديد لديهم سوى أسئلتهم الموحّدة عن الصّحّة، التي تجتنب

Twitter: @ketab_n

جين الأسئلة حولها، والأدب والفن، اللذين لا يشغلان بالها الآن، فبولز يقوم بالدور المنوط به في هذا الجانب، وشكري يأتيها بجديد ترجمات الروايات والمسرحيات من الإنجليزية إلى العربية، وتينيسي هو علبة أسرار وأخبار المسارح الأوروبية والأمريكية، وما تعرضه من مسرحيات، وسهرات موسيقية. وتلك أخبار متشوّق لسماعها بولز أكثر منها. كما أنها - في غيابه - لا تستطيع سماعها والاحتفاظ بها طازجة في ثلاجة ذاكرتها؛ لتطعمه منها حال عودته من رحلاته. وعند سماعها، تظهر - بشكل فجائي - غيمة من الحزن على وجهه، لا أحد يستطيع فَهْمها غيرها هي، فبولز يصبح حزيناً حين لا يتمكّن من حضور الحفلات الموسيقية، ويزداد حزنه؛ لأن فرصة الاستمتاع بها شبه منعدمة.

مَن يرى جين - وهي تسير في شوارع طنجة، وترفع رأسها، وتُبقيه في الأعلى، في أثناء سيرها مدّة زمنية طويلة، أو وهي تتوقّف، وتنظر إلى البنايات وما وراءها من مشاهد طبيعية - يظنّ أنها تتوسّل بالمكان؛ لتصفه في رواية جديدة. بهذه الطريقة، جمعت في ذاكرتها تفاصيل مناظر من باناما التي مكثت فيها أكثر من عشرة أيام، فأصبحت أمكنة وفضاءات مهيمنة في روايتها "سيدتان جدّيّتان". والمتأمّل أكثر في لون وجهها، طمعاً في النفاذ إلى حالتها الجسدية والنفسية، سيلاحظ أن سمرة طارئة، غلّفت بشرتها، فغدت قريبة من سحنة البنات المكسيكيات المرحات. هكذا كانت تُنعَت في نيويورك، بعد عودتها من المكسيك. كان الشتاء قاسياً، وكان بولز منشغلاً بالوفاء بالعديد من الالتزامات الموسيقية. وذات ليلة مميّزة، في أثناء الحفل الذي تلا العرض الافتتاحي لمسرحية "ليبرتي جونز"، تمّ تقديم جين للضيوف، على أنها "زوجة بول المكسيكية، الصغيرة والمرحة". بين نيويورك وطنجة ما تزال جين تلك "المكسيكية المرحة". حين تذكّرت ذلك، قفز إلى وجهها ضوء لامع، أضاء من عينيها في البداية، ثمّ انتشر في باقي جسدها. بدأت تُسرع في مشيتها، وتلتفت، كأنها تريد أن تسير في كل الاتجاهات. أصبحت امرأة قوية. توّاقة ومنشغلة بألف فكرة، تعمل داخل رأسها مثل طاحونة صامتة.

Twitter: @ketab_n

حين يبتعد عنها بولز، تراه بوضوح. لكنها لم تفهم الأسباب التي كانت وراء رفضه لفكرة تبادل الزيارات مع جيرترود، مفضّلاً مرافقة محمّد شكري وتينيسي ويليامز عليها. كان يراها امرأة مليئة بالنشاز، غامضة، تفعل كل شيء دون إتقان شيء واحد، باستثناء التحريض عن الناس، واستغلال الضعفاء، دون أن يصرّح بذلك أمام الأصدقاء. بولز موسيقي بارع وموهوب يرفض النشاز في الحياة، وفي العزف الموسيقي. وكان يذكر أمامها - دائماً - واقعة أفلاطون التي قرأ عنها، وبقي يردّدها بكل فخر في حالات النشاز؛ لأنها واقعة، تلخّص ما يمكن أن يُحدثه في البدن عازف، لا يُتقن الأوزان الموسيقية. زار أفلاطون في أواخر أيامه أحد الفلكيين، ورجلاً كلدانياً. وللتخفيف من أوجاع الحمّى التي كان يعاني منها أفلاطون المحتضر، كان عازفاً يؤدّي ألحاناً على مزماره، فنشز في عزفه، فقال أحد الزائرين إنه ليس في مقدور بربري أن يُتقن الأوزان الموسيقية، فعادت الحمّى إلى أفلاطون. وحين تذكر كيف أن بولز كان يمتلئ بالشفقة عن أفلاطون، ويقول وهو متأكد بأن النشاز هو قاتله.

وهي تمشي في ذلك الصباح المشمس، كانت ترفع رأسها إلى المنازل، وتركّز نظرتها على الشرفات والأسقف. هكذا تنظر جين إلى ما يحيط بها حين تكون مشغولة بتحدّي صعوبات وصف المكان في قصصها. كانت تستمتع بمشاهد مذهلة؛ لدرجة أنها تتذكّر يوم رأتها لأول مرّة رفقة بولز، وشكّت في أنها حقيقية.

حين انتقلت أول مرّة إلى طنجة، كانت تظن أنها ستُعجَب - فقط - بالمياه والمراكب والضوء، ولكنْ؛ لم يخطر ببالها بأنها ستُعجب بالعمارة. كانت قد قرأت عند أحد المؤرّخين أن المراكب كثيرة في هذه المدينة، حتّى إن صواريها وأشرعتها كانت منتشرة مثل الذباب، ممّا جعلها تغطّي مياه المتوسّط، إلى درجة أنها أوشكت - تقريباً - على حجبه. لم تُعجبها عبارة المؤرّخ "متكاثرة مثل الذباب". أصبحت جين لا تميل لمثل هذه التشبيهات القَدْحية، خصوصاً في طنجة المستعمرة الدولية التي يرتاب أهلها من كلمات

Twitter: @ketab_n

الأجانب المقيمين، أو العابرين. لذلك فهي تفضّل القول: "مراكب كثيرة مثل النوارس".

القطط - أيضاً - منتشرة ومُهمَلَة على الطرقات، وتحت السيارات والشاحنات. تتحرّك السيارة، أو الشاحنة، فينفر قطيع من القطط تحتها. بعضه يحمل جراحاً، لم تندمل. كانت تقيم في مطبخ بيتهما في نيويورك قطّة ضالّة، كانت قد صدمتْها سيّارة. جرحها لم يندمل. حاولت هي وبولز التعجيل بشفائها، بتقديم طعام منتظم، وتخصيص مكان دافئ للنوم. لكن ذلك لم ينفع في شيء. فالقطة مُسنّة ومُتعَبَة من حرب الشوارع، ومذعورة من البشر. لقد قضت حياة كاملة، وهي تتدحرج بين الأقدام والعجلات. وتذكر كيف أنهم خلال حفلة امتدّت حتّى الصباح، كان سالفادور دالي في المطبخ يحضّر لنفسه قهوة، فأُصيب بالذعر حين شاهد القطّة الجريحة، فغدا شاحباً، الأمر الذي فاجأ بولز. وحين لاحظ دالي أن بولز انتبه لردّة فعله، اعترف له قائلاً:" أكره القطط، وخصوصاً تلك التي تحمل جروحاً".

تذكرها قطط طنجة الجريحة، التي تقضي حياتها بين الأقدام والعجلات بالقطّة الجريحة في نيويورك. وكل شخص يُصاب بالذعر حين يشاهد القطط، يذكرها بدالي، وهو يعدّ قهوته في المطبخ، وفجأة يُصاب بالذعر حين يرى القطّة الجريحة.

دون أن تنتبه، وصلت جين إلى مركز البريد. اتجهت - مباشرة - إلى صندوقها، ففتحتْه بخفّة؛ لأنها رأت من ثقب صغير في الصندوق اللون الأبيض المميّز للرسائل التي تصل من فرنسا. إنها رسائل عدّة بيضاء وصفراء، ومن مختلف الأحجام. كُتُب ورسائل شخصية وبطاقات دعوة. لكن ما أثار انتباهها هو رسالة من طرف سيدة اسمها أنجلينا أناييز، هي الكاتبة "أنابيس نين"، كما جاء في التوقيع. فرحت جين كثيراً بالرسالة، فانبرت جانباً، وجلست على كرسي، وُضع على مخرج مكتب صغير. فتحت المظروف الشديد المتانة، وأخرجت منه ثمانية أوراق مكتوبة بخطّ، يُقرأ بصعوبة. بذلت

Twitter: @ketab_n

جين جهداً كبيراً في فكّ رموز خطّ أناييس الرديء. لقد أحصت الآنسة نين كل الأخطاء التي تمكّنت من العثور عليها في روايتها "سيدتان جدّيّتان". أعادت جين الأوراق إلى المظروف، وأرجعتْها إلى مكانها في الصندوق، فيما احتفظت بالرسائل الأخرى التي هي عبارة عن تحيات من أصدقائها في العالم أجمع.

لم تكن جين تعرف صاحبة الرسالة إلا من خلال الاسم. وذلك ما جعلها تكاد تنفجر من الغضب. وبعد حين، بدأت تضحك، فهي تعرف بعض أوصاف نين، هذه المرأة القصيرة القامة. "قامة قصيرة، ولسان طويل"، هذا ما أضحكها.

وهي خارجة من مكتب البريد، برز أمامها - فجأة - تينيسي ويليامز رفقة محمّد شكري. لاحظ بولز التوتّر على وجه جين. سألها عن الأمر، فعادت إلى الصندوق، وأخرجت منه الرسالة، ومدّتها إليه:

- اقرأ هذه الدراسة النقدية.

أحصى تينيسي الأوراق، وركّز بصره على الخطّ الرديء. فقالت له جين بصوت آمر:

- اقرأ التوقيع.

قرأ تينيسي الاسم، وهو يتذكّر:

- أناييس نين، أناييس نين،

- نعم هي.

بعد لحظات، طوى تينيسي الأوراق، وأعادها إلى المظروف، وقال بانفعال:

- لكنْ؛ ماذا تريد، بحقّ الرب؟

- أوه، لا شيء. إنها تريد - فقط - أن أعلم كم أنا كاتبة سيّئة.

بقي محمّد شكري يلاحظ الحوار بدهشة. فهو لم يفهم شيئاً ممّا قيل.

Twitter: @ketab_n

لقد كانت جين تتحدّث بانفعال، وبإنجليزية أمريكية سريعة. تخيّل - في البداية - أنها تشتم. لكن ردود تينيسي المرفقة بالحركات، خصوصاً حركة يده، وهو يضعها على كتفها، وعينيه، وهو يرفعهما إلى السماء، كأنه يبحث عن الكلمات، ذلك كله بيّن له أن الأمر لا يتجاوز الشؤون الأدبية. لكن اللبس هو في وجود اسمين في الحوار: "أنجيلا أنايز، وأنايس نين". فشكري لم يفهم من الحوار سوى هذين الاسمين اللذين طرقا سمعه. الثانية كاتبة، فهو يعرفها، وقرأ بعض قصصها، لكن الأولى مَن تكون؟ ناقدة؟ ناشرة؟ كاتبة قصص؟ وجّه شكري هذه الأسئلة إلى تينيسي الذي وضّح له أن الأمر يتعلّق باسمين مختلفين، لكنْ؛ بشخص واحد، هي الكاتبة أنايس نين التي بقدر ما تحمل من الأسماء، تحمل من الأقنعة والهويات. صمت شكري، وأطرق، ودخل من باب المركز إلى ممرّات متفرّعة بحثاً عن ساعي البريد بوغالب، تاركاً تينيسي يهدّئ من روع جين المجروحة في أعماقها، من رسالة كثيرة الورق والرصاص.

اقترح تينيسي على جين السفر إلى مراكش، والإقامة في الفندق الأسطوري "المامونية". فهناك ستجد امرأة الشمال ما تبحث عنه. ما إن سمعت جين اسم المامونية حتّى استشعرت ذبذبة شاعرية وتاريخية في جسدها النحيف. فالمامونية تعني الحدائق والمروج والطبخ المغربي والهواء والهدوء والعطور الخرافية المتطايرة في الهواء. فكل الناس الذين سافروا إلى أعماق إفريقيا، أو قدموا من الشرق أو الشمال، جاؤوا لمراكش، وأقاموا في فندق المامونية، ووضعوا خبراتهم الأزلية فيه. خبرات سافرت، وتنقّلت بدون جواز سفر، واستقرّت هناك، وبقيت تطلّ على المروج. لذلك فهو مكان يجذب الأرواح.

بدا التردّد على وجه جين بعد أن اقترح عليها تينيسي السفر معاً إلى مراكش. ففي نهاية الأسبوع، ستصل والدة بولز من نيويورك، ولا أحد يستقبلها غيرها إلى حين عودة بولز من الجبال. أقنعت تينيسي بتأجيل

Twitter: @ketab_n

فكرة السفر إلى مراكش إلى حين وصول والدة بولز التي سترغب في زيارة المدينة الحمراء.

خرج شكري من بوّابة مركز البريد مندفعاً كأنه شيء، قُذف به من الداخل بقوّة دفع عنيفة. إلى جانبه ساعي البريد بوغالب الذي سلّم بيده على تينيسي، وأومأ برأسه لجين. اقترب شكري منها، وأظهر لها مسرحيتين لجان بول سارتر مترجمتين إلى العربية:

- هل تُرجمتا إلى الإنجليزية؟

- لا أعلم، ولا أهتم بسارتر. فأدبه متجهّم مثل وجهه.

- هل تعرفينه شخصياً؟

- نعم، التقيتُه حين حلّ بنيويورك، بحفل، أُقيم - يوماً - هناك. كان يأتي عند صديقه البرتغالي دولوريس اهرنرايش. كان بولز يعامله بتقدير، إلى درجة أنه تناول معطفه من على كتفيه. وحين ذكّرته بلقاء سابق بيننا بساحة واشنطن، هزّ كتفيه غير مهتمّ، وادّعى أنه لا يذكر. ذلك سلوك غير مهذّب. ومنذ ذلك الحين، كلّما سمعت الناس يتحدّثون عنه، أو يحلّلون فلسفته، أقول لهم إنه مجرّد رجل دائم التجهّم، وغير مهذّب.

انفجر شكري ضاحكاً:

- عظيم، لم أسمع - من قبل - شخصاً يتحدّث عن سارتر، كما تتحدّثين عنه.

فاحت من فم شكري رائحة الفودكا. تقزّزت جين، وأضافت:

- وكل شخص ذو فراسة سيدرك أن سارتر رجل غريب الأطوار. الشهرة، يا محمّد، الشهرة التي حين تبتسم لشخص ما، فعليه أن يلحظ أنيابها الحادّة، الطاحنة. أنا - دائماً - في حضرة المشاهير أكون متوتّرة. هل تستطيع أنت أن تنسى شيئاً، أو شخصاً، وقع نظرك عليه؟

- حين أكون ثملاً، أنظر، وأنسى ما وقع عليه نظري.

Twitter: @ketab_n

- ما رأي بولز في سارتر، هل هو رأيك؟

تدخّل تينيسي بعدما لاحظ الحرج على جين في الحديث عن سارتر:

- بولز من أشدّ المعجبين بسارتر. قرأ له "الجدار" و"الغثيان". ومن خلاله، بحث عن كُتُب جان جونيه، وقرأها؛ لأن سارتر كان دائم الحديث عنه. بل كان يرتعش من شدّة عواطفه تجاه جان.

قاطعت جين كلام تينيسي :

- لم تكن كُتُب جونيه متوفّرة في نيويورك، فاستعار نسخة كتاب "معجزة الزهرة" من جيان كارلو مينوتي. وحين قرأه، أبعده من دائرة تأمّله الجدّيّ، فهو مجرّد كتاب إباحي.

فردّ تينيسي، والأفكار والذكريات تتدافع في عقله:

لكن بولز غيّر رأيه في جونيه بعد سنوات؛ أي بعد أن خبا الوَهْج الإباحيّ.

- لقد اقتنع بعمق المأساة عند الإباحيين، هذا ما اقتنع به بولز، وليس بلغة جونيه الذي يعدّه في الكثير من الكُتُب ثرثاراً وغامضاً.

في اللحظة التي طرقت فيها كلمة "إباحيين"، سمع بوغالب الذي كان قادراً على فَهْم الإنجليزية، قال لتينيسي:

- سيد تينيسي، هناك مجلّة وصلتك من نيويورك، وهي - الآن - على مكتب الجمركي، ويرفض تسليمها إليك، بدعوى أنها مجلة إباحية.

قال تينيسي، بانفعال:

- لا شك أنها مجلّة "بلاي بوي"، ما الذي أزعجه فيها؟

- كان شديد الاشمئزاز من صور الرجال والنساء العارية.

- يا أخي، ليشمئزّ كما يشاء، ويعطيني مجلّة مسجّلة باسمي.

- لقد جمع موظّفي المركز حوله، وقال لهم:" انظروا، هل هذا ممكن أن يدخل المغرب؟ إنها صور قذرة. لا ينبغي أن نسلّم هذه المجلة الخليعة.

Twitter: @ketab_n

- أولاً المجلة لم تدخل المغرب، بل دخلت طنجة. هذا أمر مهمّ. ثانياً المجلّة تُباع في طنجة.

لم يكد تينيسي يُكمل جملته حتّى توجّه غاضباً إلى مكتب الجمركي، وتحدّث إليه بفرنسية ضعيفة:

- سيدي، جئتُ لاستلام مجلّة، وصلتْني من أميركا.

- هذه مجلّة خليعة، ولن نسمح بدخولها إلى المغرب.

- لكنها تُباع في طنجة.

- كلا، كلا، لقد مُنعت من الدخول إلى المغرب. ماذا ستستفيد من صور رجال ونساء عراة.

ضرب تينيسي كفّاً بكفّ، وصرخ بالإنجليزية هذه المرّة:

- أووووه، لا يمكن أن يحدث هذا هنا. سأغادر المغرب غداً. إن هذا الإجراء لا يحدث في أيّ بلد في العالم.

- لا، غير صحيح. الرقابة موجودة في كل مكان. في باريس - مثلاً - يفتّشون الرسائل والطرود أكثر ممّا نفعل نحن.

ظلّ تينيسي يتحدّث بالإنجليزية وبالفرنسية، بالتناوب، وينظر إلى الوجوه؛ ليرى هل فُهِم كلامه. أما الجمركي؛ فأمعن في تفتيش الرسائل الأخرى. لكنه لم يفتح رسالة، يطلّ منها طرف شيك بنكي. أما تينيسي؛ ففي الأخير، لجأ إلى سخريته المرحة، فقال - بعد أن هدأت أعصابه - :

- هل تريد أن تتفرّج أنت على صور النساء والرجال العراة. طيب، أعطني الشيك، وصفحات المجلّة التي تحتوي على قصّتي المنشورة فيها. ليست هذه هي طنجة التي أعرفها. ما الذي وقع، يا محمّد؟ يا جين؟ يا بوغالب؟ يا عالم؟

- توجّه الجمركي إلى محمّد شكري، وسأله بالدارجة المغربية:

- هل هو شاذّ جنسي؟

Twitter: @ketab_n

- ليس من حقّك طرح هذا السؤال، الرجل كاتب مشهور، وهو صديقي، أما أنا؛ فكاتب أيضاً، وأستاذ.

بقيت جين تراقب ما يحدث، شاعرة أنها غريبة في المكان الغريب.

بعد هذه المعركة الساخنة، خرج تينيسي، وشكري في اتجاه قاعة "مدام بورط"؛ ليشربا شيئاً بارداً. أما جين؛ فودّعتهما، وتوجّهت نحو السوق، وهي تلتفت للإشارة إلى سيارة أجرة.

Twitter: @ketab_n

-١٠-
مساوئ السُّكْر اليومي

" لقد ظللتُ وقتاً طويلاً أتأمّل الأعشاب التي تنبت من الصخور العتيقة، وأتأمّل الألوان المذهلة للأزهار".

نديم غورسيل، " صيف طويل في إسطمبول"

استقبلت مدام بورط شكري وتينيسي بفرح وترحاب. كانت جالسة قبالة المدخل شاردة، لكنها انتبهت، لمّا رأت الكاتب المغربي، وبرفقته رجل أمريكيا، لم تره من قبل. كان تينيسي يأتي إلى هذا المكان في السنوات الماضية، غير أنه ليس متأكداً من كون مدام بورط تعرفه. جلسا قرب نافذة مفتوحة، تطل على شارعي "موسى بن نصير" و"غويا". شعر تينيسي بنسيم مُنعش، فهو يفضّل مثل هذه الأمكنة. والسبب الثاني لشعوره بالراحة هو أن جين بولز تفضّل المجيء إلى هذه القاعة.

يدخل شكري إلى هذه الأمكنة، وهو مفلس وجائع وعطشان. وسيدة المكان، مدام بورط، تعرف ذلك. فما كان سيلج المقهى، لو لم يكن في رفقته شخص آخر، أوروبي أو أميركي، يدفع ثمن ما أكل وشرب. لم يتناول طوال يومه سوى كوب من الحليب والقهوة. تلك هي مساوئ السُّكْر اليومي، تبدأ يومك مفلساً بعدما سلبتْك البغايا كل ما تملك. عندما يكون شكري في هذا الوضع، تجتاحه - كما يقول - "خواطر القنفذ"، فَيَنْعَت خليلات الليلة الماضية بـ"الفروج النتنة".

توجّهت النادلة الإسبانية - التي رأى شكري أنها تشبه البطّة - نحو تينيسي مباشرة، فطلب حلوى وكأسي مارتيني بارد. عادت البطّة، وهي تحمل صينية

Twitter: @ketab_n

مليئة بأشكال مختلفة من الحلوى. اختار ينيسي واحدة، يفضّلها للونها الأبيض وحبّات اللوز التي تزيّن سطحها. أما شكري؛ فمدّ يده المرتعشة إلى واحدة، لم يسبق أن تذوّقها من قبل. سأل النادلة عن اسم تلك الحلوى، فقالت:

- اسمها "الراهبة".

رشف تينيسي من كأسه، وأخرج من جيبه صفحات قصّته "ساباثا والوحدة"، وضعها أمامه فوق الطاولة. يظهر من الصفحات أنها اقتُلعت - بعنف - من كتاب أو مجلّة. وبدأ يقرأ القصّة. أما شكري؛ فدفن رأسه في كتاب، كان يحمله معه، عنوانه "الثعبان ذو الريش" للورنس. وبين الفينة والأخرى، يأكل من "الراهبة"، ويرشف من كأسه ذي الشراب اللذيذ البارد. جوّ قصّة تينيسي إيطالي، وجوّ كتاب لورانس مكسيكي، والموسيقى الهادئة إسبانية. كان تينيسي يضحك ضحكة خفيفة، وهو يقرأ قصّته. وعندما انتهى، أعادها إلى جيبه.

كانت تبدو على شكري وتينيسي آثار سُكْر بيّنة من ليلة البارحة. فشكري طاف على حانات كثيرة، وصرف ما يملك على الفروج النتنة. أما تينيسي؛ فشرب إلى وقت متأخّر من الليل في فندق رامبراند. مشرب هذا الفندق الواقع على الشارع يثير كل داخل، ويُبقيه على كونتواره أطول مدّة، بفضل هدوئه وخدماته الجيدة وموسيقاه الكلاسيكية الساحرة التي تضفي على المكان سكينة مفتقدة في كل مكان آخر. نهض تينيسي، وودّع شكري، وهو يضع يده على كتفه:

- محمّد، إلى اللقاء. أنت تقرأ كاتباً عظيماً، قراءة ممتعة. لا تنسى أمر الغلام والفيلا. طنجة هذه، لا أعرف ما وقع فيها، لقد تغيّرت كثيراً.
- إلى اللقاء، ياصديقي، نمْ جيّداً. أتمنّى أن أعرف - غداً - رأيك في كتابي "الخبز الحافي".

Twitter: @ketab_n

- آه، نسيت، لقد قرأت جزءاً منه، إنه وثيقة حقيقية عن اليأس الإنساني. غير أني لاحظت أنك بدأته بالبكاء. هاهاها. لابد أن تنهيه، وأنت صامت. إن ما يبدأ بالحزن، لابد أن ينتهي بالحزن.

حار شكري كيف يردّ على تينيسي. لكنه فضّل الصمت حتّى تتبيّن حقيقة ملاحظته. فهو - على كل حال - خصّص وقتاً، وقرأ جزءاً من كتابه، الشيء الذي لم يقم به الكثيرون من أصدقائه المغاربة.

الجمل القليلة التي نطق بها تينيسي، دخلت تحت جلد شكري، واختبأت هناك. الكتّاب الأمريكيون والأوروبيون يجهرون بآرائهم في ما يقرؤونه من أدب. هكذا تكون الأمور حين تنفرد بكتاب داخل حجرة منعزلة. تهجم عليه دفعة واحدة، وتمسكه من الأجزاء الضعيفة. أما الأجزاء الجيدة والقوية؛ فتتركها تعمل في عقلك وخيالك وذاكرتك. هكذا كان يعمل بولز مثلاً، خصوصاً في المرحلة التي قرأ فيها الكثير من الأساطير. فبدأ يستيقظ متأخّراً، ويضع ترموساً من القهوة جنب سريره، ويأخذ في كتابة أساطير خاصة به.

بقي شكري وحده يفكّر وحيداً، وفجأة وضعت النادلة الإسبانية كأساً أخرى:

- هدية منا.

ابتسم شكري، وتابع مع لورانس، وكأنه على قارب هادئ، يُبحر فيه نحو الشاطئ. كان الجوّ يغشاه الضباب. وحركة السير هادئة وبطيئة. من بعيد، يُسمع صوت سيارة، تعبر، أو ضجيج دراجة نارية متهالكة، تعبر الشارع بصعوبة مخلّفة وراءها دخاناً خانقاً. فجأة تذكّر مسرحية "حانة الغسق" لـ"آرتر كوستلر" التي كان يعمل بولز على إنجاز الموسيقى لها. وهو عمل، كما اعترف له، لم يأخذ منه وقتاً طويلاً. وسط أفكاره هذه، أحسّ رجل الخبز الحافي أنه في مكان قبالة الشاطئ؛ حيث يسهل الخلود إلى النوم، لكن مزامير السيارات أعادته إلى حقيقة موقعه؛ إنه في فندق رامبراند، وتينيسي لم يعد معه. وإن قبل هذين الكأسين المنعشين كان يملك رأساً بلا فكرة.

Twitter: @ketab_n

والآن الفكرة الكبرى التي تؤرّقه وتقف على رأس قائمة الأفكار في رأسه هي: لماذا لم يتوصّل منذ أسابيع برسالة واحدة؟

لم تكن الرسائل التي تصل محمّد شكري تتجاوز ثلاثة كيلوغرامات في الشهر. لا يمكن مقارنتها بالرسائل التي تصل بابلو نيرودا يومياً، وهو في جزيرة "إيسلا نيغرا". فالرسائل التي تصل بولز وزوجته جين وصديقهما تينيسي مجتمعة لا تصل وزن الرسائل التي كانت تصل نيرودا وحده. لكن ساعي البريد بوغالب كان يكاد يطير من السعادة حين يقرأ على الرسائل الأسماء الأربعة: بولز، شكري، جين، تينيسي. وبذلك إذا كان ساعي البريد "ماريو خيمينيث" يحمل على ظهره فيلاً، وهو يتوجّه بالرسائل على متن درّاجته إلى نيرودا، فإن بوغالب - وهو يتوجّه بالرسائل إلى هؤلاء - كان يشعر بثقل دجاجة، أو دجاجتين. لكن حقيبة بريد بوغالب كانت مثقلة، بوزن إضافي: مسرحية تينيسي مترجمة إلى العربية "قصّة فوق صفيح ساخن"، ومجموعة قصصية لبولز مترجمة إلى الإسبانية، وفصلين من السيرة الذاتية لمحمّد شكري مترجمة إلى الإنجليزية من طرف بولز، والكتاب الأهم ضمن هذه الذخيرة هو رواية "ساعي بريد نيرودا". وأهمّيّته تكمن من كون الرواية تتماهى معه. فطنجة تصبح - بسهولة - جزيرة "إيسلا نيغرا"، وبوغالب يتحوّل إلى"ماريو خيمينيت"، وبابلو نيرودا إلى محمّد شكري، أو جين آور بولز، أو بول بولز، أو تينيسي ويليامز. لكنْ؛ لا أحد يعلم هل اشترى بوغالب تلك الكُتُب من أول راتب، توصّل به في وظيفته، مثلما اشترى ماريو خيمينيت ديوان نيرودا "أغنيات بدائية" من راتبه الأول. كان يحمل الكُتُب النارية طيلة يومه، كأنها كُتُب مدرسية، سيجتاز اختباراً فيها، في نهاية السنة الدراسية.

ثمّ هناك ملاحظة في غاية الأهمّيّة، وهي أن بوغالب يحمل الكُتُب المذكورة دون توقيع أصحابها. وينوي أن ينتهز الفرصة التي تكون فيها أمزجتهم رائقة، ويقدّم لهم الكُتُب، ويطلب منهم كتابة إهداءاتهم عليها. وإن اللحظة المناسبة هي تلك التي يستلم فيها كل كاتب رسائله. لكنهم كانوا يكتفون

Twitter: @ketab_n

جميعاً، كما لو على اتفاق مسبق، بإعطائه نقوداً، أو هدايا من أميركا، أو أوربا، أو الاكتفاء بكلمة "شكراً". باستثناء شكري الذي كان يقدّم له سيجارة، يتكلّف هو بإشعالها له. ويتذكّر يوم سلّمه ظرفاً، فيه مجموعة من الشيكات، ربمّا شيكين، أو ثلاثة. أمسك شكري الظرف بتلهّف، كأنه توصّل بشيء، كان ينتظره. عدّ بوغالب أن تلك هي اللحظة التي كان ينتظرها منذ زمن بعيد، فأخرج من حقيبته كتابه عن جان جينيه "جان جينيه في طنجة"، ومدّه له مع قلم حبر لتوقيع إهدائه. قبل شكري مبتسماً:

- يا بوغالب، لديّ كتاب سيصدر أهمّ من هذا.

- ما عنوانه؟

- "من أجل الخبز وحده".

- نعم، لقد قرأتُ فصلاً منه. أريد أن أصبح كاتباً مثلك.

- بقاؤك ساعي بريد أهم بكثير من كاتب مدمن على التدخين والخمرة. كل الكتّاب في المغرب مدمنون.

- أريد أن أصبح كاتباً؛ لأقول كل ما أريد قوله.

- وماذا تريد أن تقول؟

- لستُ كاتباً؛ لأقول لك - الآن - ما أريد قوله. لكنني أتذكّر طفولتي على الدوام.

- ارجع غداً، ونتحدّث في الأمر.

بقي شكري في عتمة ركن بالفندق يتذكّر الرسائل، ويفكّر فيها. الرسائل هي شهرته، هي حلمه الأدبي. لينظر كيف يذهب الكتّاب الأجانب إلى مكاتب البريد، فثمة - دائماً - رسائل تصل من الناشرين والمترجمين والقرّاء والكتّاب والنقّاد. لكن أهمها - بالنسبة إليه - هي التي تحمل شيكات بنكية. حين خطرت على باله كلمة "شيكات" تذكر اليوم الذي سلّمه فيه بوغالب رسائل، كانت تضمّ شيكات. وكيف أغلق الباب بسرعة، بعد حوار قصير مع

Twitter: @ketab_n

بوغالب، فقد كان متلهّفاً لمعرفة القيمة المالية للشيكات. نزل بوغالب الدرج، وهو يردّد اسمه. وقف شكري وسط الممرّ، وفتح الظرف. ثلاثة شيكات بقي يتأمّلها حتّى وصل إلى المطبخ. تناول كأس ماء كبير، وجلس أمام التلفزيون، وبدأ يقرأ الأرقام، ويستمع لنشرة الأخبار. مرّ بفترة صمت قصيرة، وهو يحوّل العملات، ويجمع المبلغ. تينيسي هو مَن سيعطيه مجموع مبالغ الشيكات بالعملة المغربية. ترى أين سيكون في هذه الساعة؟

حين واجه بوغالب الشارع الهادئ، شعر بالسكينة الأصلية لمدينة طنجة. وبقي شكري داخل بيته يبحث عن القميص الذي أهداه تينيسي. ومباشرة، سيخرج إلى مقهى باريس؛ ليلتقي به. لقد انتقل من الكآبة إلى الفرح، بفضل الشيكات. هكذا سيهدي لنفسه ولتينيسي نخب تلك القصص التي نشرها في مجلة أمريكية، كان بولز قد ترجم لها تلك القصص. لكنه سرعان ما أحسّ بسحابة كآبة ثقيلة تجثم على العصفورة الصغيرة التي تحت ضلعه، قلبه الأحمر الخافق. لقد كان - في الحقيقة - ينتظر رسالة من تلك المرأة التي أحبّها وأحبّته الصيف الماضي على شاطئ أصيلا. وسيبقى ينتظرها من يد بوغالب كل الأيام والليالي القادمة. رسالة ستصل في يوم ما؛ لأنها واعدتْه بأنها ستبعثها إليه.

لمّا أفاق شكري من غفوته، شعر كأنه داخل السديم. أحسّ بألم في الرأس. لم تعد الأفكار تسقط عليه من السماء. خرج من زمان، ودخل آخر. لا بد أن يختفي حالاً من أمام العيون المنذهلة التي لا شك أنها كانت تراقبه، من وقت طويل. استيقظ برأس نائم، بقيت داخله عدّة أفكار صرعى. الوجهة المفضّلة في هذه الحالة هي البيت. فقطيع الأفكار والخواطر شبه ميت داخل رأسه. وما حدث قبل ساعة لا يحدث الآن، تغيّرت الوجوه والضوء والرائحة، كل شيء يجري داخل نهر هيراقليط هذا، وعليه - هو الآخر - أن يُبحر، لكنْ؛ هذه المرّة إلى البيت.

Twitter: @ketab_n

-١١-
اختفاء الشهاب السريع

"بدأت أدرك أن تورخوس هو رجل رومانسي. لكنني ما لبثتُ أن اكتشفتُ أن الرومانسية لدى معظم الباناميين تقابلها نسبة من الفلسفة الوقحة، بالإمكان اكتشافها، من خلال الأناشيد".

غراهام غرين، "لقاء مع الجنرال"

حين أفاق شكري من نومته، قفز من السرير، فهو - بدون شك - على موعد مع تينيسي. لا يذكر - بالضبط - أين أو في أي ساعة. المهم أنه يتذكّر - بشكل غامض - أنهما ضربا موعداً. فخرج يبحث عنه في المقاهي، فعادة ما يشرب تينيسي القهوة، ويقرأ جرائد الصباح في مقهى باريس.

يحترق شكري لمعرفة أين يختفي تينيسي طيلة ساعات دون أن يكون في أي مكان من أمكنته المفضّلة. يختفي الشهاب السريع، ويبقى شكري يبحث، ويسأل، ويخمّن، إلى أن يسقط الظلام، ويتّجه - مباشرة - إلى سريره؛ ليقرأ، أو يكتب، أو يُكمل نصف قنّينة خمر، بقيت من ليلة البارحة. وفي الصباح، يجده أمامه في مقهى باريس بصحبة مرافقه الشاب "باكسه" الذي يشبه تمثالاً حزيناً في حديقة مهجورة.

حين يختفي تينيسي، يخطر على بال شكري البحث عنه في بيت بولز. لكنه يتردّد، فزيارة بولز دون موعد شيء، يُقلقه كثيراً. ففي الأسبوع الماضي، زاره، ووجده غارقاً في سريره، والحمّى تأكل من جسده، وحين بدأ في التعافي شرع في كتابة قصّة، وكفّ عن استقبال زوّاره. هذه هي عادته. فقد ورث من جدّ والده ذي الشاربين البيضاوين المتدليين والنظّارات الطّبّيّة القابعة على

Twitter: @ketab_n

أنفه، البقاء وحيداً في الحجرة، والانهماك في القراءة. لكن بولز زاد على جدّه حرفة الكتابة. هكذا كتب قصّته "تابيانا"، القصّة التي تتمحور حول الحمّى. فكيف يهجم شكري على خلوة بولز؛ ليسأله عن تينيسي؟ ثمّ هل عاد بولز من جولته الموسيقية التي ينوي منها جمع أكبر عدد من القطع والألحان الموسيقية الشعبية؟

خوف شكري من عيادة بولز راجع - أيضاً - إلى أنه يعرف أن بولز سيطلب منه أن يجلب له حزمة من الكُتُب، وصلت، باسمه، إلى مركز البريد، بطنجة، سيجدها عند بوغالب. وفي أحسن الحالات، سيطلب منه أن يجلب جرائد إنجليزية، أو إسبانية. وشكري مُفلس على الدوام، وبولز بخيل، فكيف يتدبّر مبلغاً مالياً لشراء ذلك كله. فعلها بولز، كما حكى لشكري بحضور اليعقوبي، في لندن حين أُدخل المستشفى هناك على إثر إصابته بوباء، أقعده في فراش المرض طيلة أسبوعين. وطيلة تلك المدّة، كان بولز يطلب من كل مَن يزوره أن يجلب له الكُتُب. لن يجد في طنجة مَن يشتري له الكُتُب، باستثناء المقيمين الأوروبيين، أو الأمريكيين، فالطنجيون فقراء ومتسوّلون، لا يشبعون من طلب المال، كما صوّرهم في قصصه.

لا يدع بولز أصدقاءه الأمريكيين بسلام. لا بد أن يبعثوا له، بشيء من أميركا. والأشياء التي تصله، يمكنه أن يحبّها، ويحتفظ بها، ويمكن أن تكون ثانوية وصغيرة الشأن، ويتخلّص منها. فهل الأمريكيون كلهم هكذا؟ هل تينيسي ويليامز يشبه بولز في نزواته وشهيته المفرطة للأشياء المُرسَلَة من قارة بعيدة؟ وهو في لشبونة مثلاً وصلتْه مجموعة قصصية لـ"جيمس بوردي"، عنوانها "لون الظلام"، قرأها، وتأثّر بها. والمرسل هو "جيمس لافلين" من أميركا. وقد التقاه في لقاء أخير قبل وفاته. هكذا تفعل الكُتُب المرسلة في بولز حين يحبّها، ويتأثّر بها.

بهذه الطريقة، ينظر شكري إلى الأمور؛ بولز منطقة خطرة، الصداقة معه تتطلّب أن تكون أميركياً، وإن كنت مغربياً يجب أن تكون غنياً، وإن كنت

Twitter: @ketab_n

مغربياً فقيراً، سينتهي بك الأمر مثل المرابط الذي قضى معه فترة، وهو يطبخ له، ويغسل أواني مطبخه، ويدخّن رفقته الكيف، ويقصّ عليه حكايات خرافية، يجعلها الكيف عميقة الغور.

لكن شكري يمكن أن يزوره، لو كان في حاجة إلى شرب خمر جيّدة. بل إن كل مَن يعرف شخصية شكري الصلبة والمستقلّة والجسورة لن يصدّق، إذا ما قيل له إن شكري يخاف من زيارة بولز، بلا موعد. إنه شخص يصدم الجدار، ويخترقه، وينظر إلى ما وراءه. وبولز يعرف ذلك جيّداً، فمقدار معرفته برهافة وهشاشة العياشي والمرابط، هو مقدار معرفته بصلابة ورعونة شكري. لكن الأمر الذي أبقاه بعيداً من بيت بولز، هو كونه لا يعرف هل عاد من جولته الموسيقية؟ أم ليس بعد؟. تلك الجولة التي "سيحلب" فيها - حسب تعبيره - ما يجود به ضرع تلك المناطق من ألحان وإيقاعات.، كما سبق أن "حلب" ضرع العياشي والمرابط.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-١٢-
أي الأماكن يفضّلون؟

" كنتُ أتساءل لماذا لا يقلق أبي أبداً. هل كان أعمى؟"

آمي تان، " نادي البهجة والحظّ"

إذا سألتُم أيّ مُنتمٍ لدائرة الكتّاب الأجانب والمغاربة: أيّ مكان يفضّله محمّد المرابط، وأيّ شخص هو الألطف، بالنسبة إليه؟ فسيجيب دون إبطاء: المكان هو بيت بول بولز، والشخص هو جين بولز.

ابن الطاهي والحلواني، ذو الأربعة وعشرين طفلاً وطفلة من زوجتين، الذي يحمل اسم محمّد الحجّام، والمعروف في الأوساط الأدبية بطنجة تحت اسم محمّد المرابط، سيعلم بغياب بولز عن طنجة، فيقرّر زيارة جين. سيذهب، وهو في منتهى الأناقة واللطف. وذلك أمر مُبرّر، فما تحبّه جين في المرابط هو أناقته ولطفه.

في تلك الفترة، بدأ المرابط يحبّ الحكايات، فبواسطة المساعدات وكل أشكال الدعم الفكري والأدبي الذي قدّمه له بولز، أصبح يجيد صناعة بنية حكائية، لا يضاهيه فيها حتّى أكبر الكتّاب العالميين. أما سلاحه في ذلك؛ فموهبته، وذاكرته، وحياته العديدة الثنايا، وإتقانه للفرنسية والإنجليزية والإسبانية، دون تمكّنه من الكتابة بها. أما إذا سألته هو عن سرّ إتقانه فن التخيّل والحكاية، فسيجيبك، وهو يتّخذ هيأة مَن يسدي نصيحة: تدخين "الكيف" الممتاز. لكن ما يُقال عنه، خصوصاً من أفواه أصدقائه المقرّبين، هو أنه يتمتّع بذكاء خارق، وبذاكرة تشبه الثلاجة، تحتفظ بداخلها بكل شيء

Twitter: @ketab_n

طازج. وهو - طبعاً - كان لا يعرف مواهبه إلا بنسبة ضئيلة. وفي المقابل، كان يدرك أن ما جمعه ببولز هو حب فن الحكايات والقصص.

في أثناء غيابه عن بيت بولز، حدثت أشياء كثيرة، لم يعلم بها هو. ولذلك فهو يقوم بهذه الزيارة الخاطفة التي يتمنّى أن تكون حصيلتها من الأخبار الجيدة في مستوى ما ينتظره. غير أنه يجهل لماذا هو مندفع بقوّة أكبر منه نحو ذلك البيت مثل رسول، يحمل أخباراً، تنتظرها جين على الخصوص، أما بولز؛ فلم يعد يهمُّه مجيئه، أو عدم مجيئه بعد أن أفرغ كل ما في جعبته من حكايات وقصص، ما ملأ به خمسمائة شريط، قضى ليالي بكاملها في ملئها.

وهو - في طريقه - شغل نفسه بطرح أسئلة كثيرة، أرغم نفسه على الإجابة عنها، من قبيل مَن ظلم الآخر؟ هو أم بولز؟ هل تصديقه لكل ما قيل عن استغلال بولز له، كان أمراً صائبا؟ أم أن كل مَن حشروا رأسه بكراهية بولز كانوا يحفرون هوّة عميقة بينهما؟ ما دخله هو في الطريقة التي يعامل بها بولز زوجته جين؟ هل - حقاً - قسوة بولز على جين هو ما دفعها إلى الإدمان وملازمة المصحّات العقلية؟ بأي مقياس، يمكن قياس معاملة زوج لزوجته وزوجة لزوجها؟

كان الغروب، الشبيه بغروب الخريف، يشقّ طريقه إلى سماء طنجة. وكان قلب المرابط على وشك أن يطير من مكانه نحو تلك السماء الجهمة. نحو ذلك الغروب الذي يجثم على أسطح البيوت، في مدينة تبدو كأنها مجرّد رسم بالأبيض والأسود على قماش رسّام حزين وعابر. وهو في طريقه إلى بيت جين وبول بولز، الذي كان يسمّيه هو والعربي العياشي "الدار الكبيرة"، تذكّر عراكه مع الحكايات التي ظلّت مختبئة في ظلام نفسه، مثل الأرواح، فيتآمر عليها مع الليل ومخدّر "الكيف" لاستخراجها، فتخرج بقوّة كالسيل. إن حكاية حكاية - بالنسبة إليه - هي شبيهة باستحضار أرواح غائبة.

كان المرابط يعيش فترة طفولة ممتدّة: تأتيه الحكاية، فيحكي، يأتيه الغناء،

Twitter: @ketab_n

فيغني، دون أن يشكّ على الإطلاق في أنه حكواتي، أو شاعر. كان إنتاجه الحكائي ينتقل منه إلى بولز، الذي يترجمه؛ أي أنه قد يقصّره، وقد يطوّله، وقد يُعيد تأليفه، أو يقرن حكاية بأخرى، أو يؤلّف قُصيصة، تصبح تتمّة لها. وهكذا تخرج من الحكاية حكايات، لا يستطيع إلا المرابط الادّعاء بأنها له، من صميمه، من روحه، وسرّ من أسراره.

جين في الطابق الثالث من بيت في طنجة، وبولز يجوب الجبال والقرى لجمع الأغاني والألحان، هل هذا جادّ ونافع؟ الجواب يعرفه المرابط، لكنْ؛ من اللياقة والعقل ألا يجهر به أمام أحد، وخصوصاً أمام جين العليلة. جين تعرف الجواب أيضاً، لكنها تخفي أجوبتها وشروحها، حتّى تستطيع العيش والموت في هدوء.

كان صيف تلك السنة - بشكل عام - جيّداً، بالنسبة للمرابط. فمباشرة بعد عودته من نيويورك، وجد في علبة رسائله إشعاراً بوجود رسائل باسمه في مكتب البريد. وحين ذهب للبحث عنها بقلب خافق، وجد حزمة من الرسائل من العالم كله، لكن ما همّه فيها ذلك الشيك الممهور بتوقيع مدير دار النشر الفرنسية التي نشرت سيرته الذاتية "الليمون". وهي قيمة مالية عن حقوقه لترجمة كتابه إلى اللغة الفرنسية. لو كان يعلم بها، لتوجّه - مباشرة - إلى باريس، وزار دار النشر، وجلب معه بعض النسخ. كان الأمر سيكون مختلفاً تماماً في باريس بعد لندن ونيويورك والميسيسيبي. ما الاستنتاج من هذه التجربة؟ إنه استنتاج بسيط ومحزن: بعد هذه الهوية الجديدة التي طرأت على كيان المرابط، وبعد هذه الحياة المختلفة التي أصبح يحياها، وبعد شخرة الكتاب هذه التي جاءته من حيث لا يدري، يلتفت المرابط؛ ليجد صانع ذلك كله: بول بولز، ولا يجده. بل إن الحزن يشتدّ عليه حين يفيق في الليل، ويفكّر ملياً في الأمر، ويقتنع بأنه نسب إلى نفسه أشياء، ليست له. تماماً مثلما ينسب الإنسان لنفسه أطفالاً، ليسوا أطفاله. لكنه يعود، ويفكّر في الاتجاه المعاكس: إنه مبدع حكايات وقصص، يعمل بسرعة

Twitter: @ketab_n

كبيرة، أدهشت بولز نفسه، بل ويجيد التخيّل بسهولة. وهما موهبتان، قدّرتهما - في البداية - جين قبل بول، بوقت طويل.

عندما وصل المرابط إلى بيت جين، واستقبلته ذلك الاستقبال الحَسَن، قرّر إيضاح الأمر بالكامل: ما منعه من زيارتها، أو كتابة الرسائل إليها هو خوفه من ردّة فعل زوجها بول، الذي أصبح يكرهه كرهاً شديداً. كانت جين تسمع كلاماً مألوفاً لها. ففضّلت - في البداية - وضع مقدّمات للقائهما وحديثهما وشجونهما. كانت نحيفة، لا تقوى حتّى على حمل كأس ماء بيديها معاً. والتلعثم ظاهر في كلامها. عيناها لم تعودا بنفس اتساع وبريق مؤلّفة رواية "سيدتان حازمتان". لم يكن أمام المرابط سوى تجاوز كل ذلك، ووضع افتراض أن جين بولز - بكل بساطة - كتبت رواية جميلة، عنوانها "سيدتان جادّتان"، وعاشت حياة، بالقرب من كاتب وفنان، لا يرحم، اسمه بول بولز. وباتفاق الجميع أن جين كانت أقوى من بول؛ لأنها عاشت معه، رغم كل شيء، وستموت بالقرب منه، وليست هناك حاجة لقول شيء إضافي.

- يا إلهي! كم أنت جميلة، يا جين.

قال المرابط بإنجليزية صافية، كأنها خارجة تواً من إحدى مسرحيات شكسبير.

- رغم كل شيء، سأصدّق ما قلته، يا محمّد. لكنْ؛ كفّ عن قول ذلك، فأنا لن أصمد أمام كلماتك. انظر إلى يدي، إنها ترتعش، هل للنساء الجميلات أياد ترتعش؟ هل ما تزال تدخّن "الكيف"؟

- منذ قدومي من أميركا قبل أسبوع، بدأتُ أدخّنه من جديد.

نهضت جين، واتجهت إلى مكتب بول، وجلبت غليون الكيف، وحفنة صغيرة من المخدّر داخل كيس جلدي صغير، ومدّتهما للمرابط الذي أخذهما بتلهّف. ثمّ سألها:

- هل ما يزال بول يدخّنه؟

Twitter: @ketab_n

- نعم، بين الفينة والأخرى، حين يكون وحيداً في الليل. تصلني رائحته من المكتب.

- من أين يجلبه؟ مَن يشتريه، ويهيّئه له؟

- لا أعلم، ربّما العربي العياشي، الذي يأتي - مباشرة - إلى هنا بعد جلساته في تلك المقاهي المهجورة المليئة بالحشّاشين ومُدمني "الكيف".

- إذنْ؛ سأدخّنه، فالعربي بارع ومحترف، ويعرف كيف يصطاد "الكيف" الجيد، تماماً كما هو بارع في صيد السمك.

أنهى المرابط جملته بضحكة طويلة، ثمّ دخّن نَفَساً طويلاً، استنفر له رئتيه وحاسة شمّه. سرح لحظة، وهو يرفع رأسه نحو سطح البيت، كأنه يشتمّ عطر اللحظات النادرة. ثمّ وجّه نظرته وقوله إلى جين:

- أنا مَن جلب هذا السبسي لبول من الشاون.

- لا، أعتقد أنه اشتراه بنفسه من الشاون، وكنتُ برفقته.

كانت جين تحبّ مدينة الشاون كثيراً، وكانت تقوم بين الفينة والأخرى بزيارتها لقضاء نهاية الأسبوع. كان بولز قد وضع نظاماً صارماً لهما. في الصباح الباكر، يذهبان للتسوّق، وحين عودتهما، وغالباً ما يكون معهما صديقهما التمسماني، يهيّئان القهوة، فيأخذ بول معه جين إلى السرير، ويعملان إلى منتصف اليوم. كان بول - أيامها - يعمل على إنهاء الفصول القليلة الأخيرة من إحدى رواياته. ساعده جمال الشاون على العمل، فصمت هذه المدينة غير موجود في أي مدينة في العالم، لم ينس - أبداً - أصوات ديك، كانت تصله من السهول البعيدة.

بقي المرابط يدخّن "إلكيف"، وجين تتذكّر، وتنظر إلى ما وراء وجهه، إلى روحه، فهناك يحدث كل شيء. امتلأت الصالة بالدخان، فنهضت، ومشت بضع خطوات، وفتحت النافذة، فهم المرابط أن عليه الانتهاء من التدخين.

Twitter: @ketab_n

فوضع الـ"سبسي" وذلك الجيب الصغير المصنوع من الجلد الذي يسمّيه المغاربة "مطوي"، وسأل جين عن بولز:

- أين هو بول؟

- إنه في الجبال والصحاري، يطارد أنغام "جهجوكة".

- هل امتلك سيارة خاصة؟

- نعم، جاغوار.

حين كان أصدقاء بول يلحّون عليه، كان كلامهم ينزل عليه كالصاعقة.، فهو لم يخطر بباله - أبداً - أن يصبح ذات يوم مالكاً محتملاً لسيارة، كما أنه لم يخطر بباله بأن المال يمكن إنفاقه. فقد دأب على ادّخاره، بشكل آلي؛ بحيث كان ينفق أقل قدر ممكن. وبذلك، فكل مَن يطالبه بشراء سيارة، وعلى رأسهم زوجته، كانت أصواتهم تضارع أصوات الشيطان. لكنه ذات يوم، بدأ اهتمامه يُشدُّ نحو السيارات، ولم تمرّ ثلاثة أسابيع حتّى امتلك سيارة من نوع جاغوار. وما إن اشتراها، حتّى طُولب بالبحث عن سائق، وكان يجيب بأن ذلك ضرب من المستحيل، فلن يقدر على تحمّل أجر السائق.

"الكيف"، ذلك المسحوق الأخضر، الذي ظل المرابط يضعه في "السبسي" بتركيز، ثمّ يشعله بأعواد ثقاب؛ ليصعد دخانه من الأنبوب الخشبي الدقيق نحو دماغه مباشرة، جعله يسخر من بولز أمام زوجته:

- تخيّلي معي أن يعود بول بشاحنة محمّلة بفِرَق موسيقى جهجوكة، أو الطرب الأندلسي؛ ليسجّل موسيقاهم هنا في البيت، ففي تلك الجبال لا وجود لكهرباء.

- لا يهمّني، ليفعل ما يشاء. قمْ إلى المطبخ، وانظر إلى باب الثلاجة، إنه مليء بالرسائل التي يتركها لي، ويتوجّه إلى عواصم وأمكنة، لا أعرفها. وحين أفتقده لن أستطيع البحث عنه، ماذا أقول لهم؟ فهو لم يكن - يوما ماً - موجوداً معي.

Twitter: @ketab_n

صمت المرابط أمام هذه الأقوال الحزينة القوية. وركّز نظرته على هذه المرأة الشاحبة. نهض، وقبّل جبينها:

- لا تقولي ذلك، يا جين. بولز يحبّك، فقط هو يعمل - بشكل مستمرّ- وفق برنامج صارم، لا يرحم. ألا تذكرين تذمّر والدته منه، فهو لا يزورها، ولا يبعث لها حتّى بالرسائل.

- أووووه، يا محمّد، لقد ذكّرتني بالسيدة بولز، ستصل إلى طنجة غداً، أو بعد غد، وبول غير موجود، وأنا لا أقدر على استقبالها وخدمتها.

- أقترح عليك الاتصال بمحمّد شكري، هو مَن سيتكلّف بها.

- يوجد شكري هذه الأيام مع تينيسي ويليامز، سمعتُ أنه يكتب عنه كتاباً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-١٣-
ألان غينسبورغ في طنجة

"تعاونوا معي بكبرياء وحماس؛ كي أصبح أكثر ثراء، ممّا أنا عليه، أودعوا صدقتكم في يدي الممدودة والأخوية، أفضّل العملة الورقية، وإن لم توجد، فالمعدنية.".

خوان غويتيسولو، "ملحمة آل ماركس"

وصلت السيدة بولز من باريس إلى طنجة، عازفة البيانو الرائعة، والدة الابن الشاحب بول بولز، الطائر الذي لا يستقرّ على غصن، والذي لم يكن في انتظارها رغم إخبارها له بتاريخ وصولها. أن تصل والدتك، أو والدك، أو أحد أقربائك، أو أصدقاؤك، إلى ميناء أو مطار، ولا تكون في استقباله، ليست تلك من عادات الأمريكيين.

وصلت إلى بولز رسائل كثيرة في أثناء فترة غيابه عن طنجة. الأولى من ألان غينسبورغ، يخبره فيها أنه سيأتي إلى طنجة في نهاية الصيف رفقة ويليام بورّوز وغريغوري كورسو. ووصول هذه المجموعة إلى طنجة كان - لاشكّ - سيكلّف بولز الكثير من المال، فهم - دائماً - يبحثون عن الفنادق الفاخرة، والشقق الشاعرية التي تطل على المرفأ. هذا إضافة إلى ما تكلّفهم تجاربهم في الكتابة الآلية من حشيش وزجاجات خمر وكبسولات وضياع متاهيّ في جيوب طنجة. ينقلون تجاربهم حرفياً، كما عاشوها في عواصم أخرى مثل باريس ونيويورك وهارفارد وغيرها، دون تمييز بين مدينة تبقى لامعة مثل نجم، وأخرى تبقى واقفة مثل راع منعزل.

الشيء الذي لم يكن بولز مقتنعاً به تمام الاقتناع، وكان يخفي رأيه الحقيقي

Twitter: @ketab_n

بخصوصه، هي مسألة أن النثر يجب تقطيعه، ثمّ إعادة ترتيبه بطريقة اعتباطية. كان براين جيسين هو المدافع المتحمّس عن هذا الأسلوب. أما الأسلوب الآخر الذي كان في الحقيقة يسلي بولز هو ذاك الذي اقترحه بورّوز، وكان يقتضي منه تسجيل نفسه، وهو يقرأ باعتباط من مجلات وجرائد وكُتُب، ثمّ يقوم بإرجاع الشريط إلى الخلف والأمام، ويضع مواد جديد؛ حيث يتوقّف الشريط. وحين قام بول بمصارحة بورّوز بأنه رغم تقطيع الجمل، فإن النثر يبقى يحمل دمغة نثر ويليام بورّوز، عدّ بورّوز هذه الشكوك غير مقبولة، وردّ قائلاً بأن التقطيع في الكتابة الإبداعية يصير "بين يدي معلّم" تقنية صالحة. أما بول؛ فَعَدّ أنه لا يحقّ له مواصلة ردوده وتفكيره المتشكّك في حماسات المجموعة، وهداياها اللانهائية للأدب العالمي، فكان يتراجع، ويبقى صامتاً وشارداً، وهو ينصت للهرّات والأهوال التي كابدها، وهو يعبر القارات المليئة بالوجوه التي تمثّل حياة كاملة.

الرسالة الثانية التي وصلت إلى بولز كانت من مجلّة تسمّى "المجيء الثاني" تطلب هيئة تحريرها مادة للنشر. رسالة وضعتها جين فوق مكتبه، وحين جاء، وقرأها، فكّر في استعمال إحدى الحكايات التي رواها له الحارس بـ"ميركالا"، العربي العياشي، التي حكى فيها ذكرياته عن السجن. وحين نُشرت القصّة، توصّل بشيك مكافأة، من المجلة.

والرسالة الثالثة كانت تحملها امرأة من باريس، من طرف ترومان كابوت، كان اسمها نادية باتسيفيتش، كانت تعتزم كتابة مقالة حول جنوب المغرب لمجلّة، اسمها "فوغ". وهي المرأة التي ستلتقيه فيما بعد، وتتناول معه وجبات عشاء فاخرة، بفندق فيلا ميموزا. بل ورافقها إلى الصحراء، وهو في عزّ انشغاله بكتابة رواية "دعه يسقط".

من بين أغراض والدة بولز، كانت هناك رواية رتشارد هيوغز "ريح عاتية في جمايكا"، جاءت بها؛ لتجلس بجوار ولدها بول، وتقرأ عليه بعض فصولها، كما كانت تفعل معه في طفولته. إضافة إلى أن ذلك يمثّل دواء ناجعاً في

Twitter: @ketab_n

فترات مرضه، فما إن تقرأ عليه من الرواية حتّى تلوح فترة النقاهة في الأفق.

استعانت جين بامرأة طنجوية، للّا منّانة بائعة الحلويات بالسوق المركزي، للبحث عن خادمة، تقوم بأشغال البيت، وخدمة والدة بول. بعد يومين من البحث، جاءت للّا منّانة، وفي رفقتها بنتان من ريف طنجة، وعلى التوّ، قبلتهما جين للعمل في بيتها الموحش، وهي على علم بردّة فعل بول إزاء هذه المصاريف الإضافية.

حين التحقت الفتاتان كخادمتين في البيت، أطلعتْهما جين على القوانين الداخلية، وتهمّ - في غالبها - المطبخ وترتيب الغرف، ومقاومة الغبار، وعدم إتلاف الأشياء، أو نقلها من مكانها الذي توجد فيه. وأوصتْهما خصوصاً بالاهتمام بسيدة، ستحلّ ضيفة لبعض الوقت، هي والدة صاحب البيت السيد بول بولز. أومأت الخادمتان برأسيهما، ثمّ دخلتا المطبخ؛ لتنظيفه، وتهييئ وجبة الغذاء.

دخلت جين إلى غرفتها، وبدأت تقرأ - من جديد - رواية "رحيق في غربال" للهندية كمالا ماركاندايا. توقّفت طويلاً عند الجمل الافتتاحية للرواية:" أحياناً في الليل، يتراءى لي أن زوجي معي من جديد. يأتي برفق عبر الضباب، ونمكث هادئين معاً. ثمّ يحلّ الصباح، ويتحوّل اللون الرمادي المرتعش إلى ذهبي، وأشعر برجّة خفيفة في داخلي، فيما يستيقظ النيام، ويرحل هو بهدوء". أعجبت جين كثيراً بهذا المدخل الشاعري؛ إذ كيف لكاتبة هندية، اللغة الإنجليزية هي لغة نشأتها الثقافية، أن تعبّر بهذه الجمالية الفائقة، كما لو أن الإنجليزية هي لغة نشأتها العاطفية؟ إذنْ؛ كان مع بولز الحقّ حين قال إنها روائية هندية شابّة عظيمة، كما كان على حقّ ذلك القارئ المجهول الذي بعث لها برسالة، عبّر فيها عن تقديره لهذه الرواية العالمية.

حين وصلت والدة بول، ولم تجد أحداً في استقبالها في ميناء طنجة، استعملت خبرتها الفائقة كمسافرة من ميناء إلى ميناء. طلبت من سائق سيارة أجرة نقلها إلى عنوان بيت بول. انطلقت السيارة على مسار واضح،

Twitter: @ketab_n

فالعنوان معروف، والسائق اعتاد على نقل الأجانب إلى ذلك الحيّ الراقي من طنجة. حاول استدراجها إلى الحديث عن نيويورك، فمن لهجتها عرف أنها أمريكية. لكنها أجابتْه بأنها قادمة من باريس. تمنّت السيدة بولز أن يصمت السائق، ويكفّ عن طرح الأسئلة بتلك الإنجليزية الرديئة، ويتركها تهدّئ من آلام جسدها المتعب من تلك الرحلة البَحْرية الشاقة. وحين فتح السائق فمه استعداداً لطرح سؤال آخر، أغمضت عينيها، وتظاهرت بالنوم. عاد السائق إلى صمته، وهو يبحث بعينيه على الطرقات المؤدّية إلى وجهة السيدة النائمة جنبه. لم تفتح حدقتها إلا حين شعرت بسرعة السيارة تنخفض، وبصوت السائق يُبلغها بالوصل. ناولتْه مبلغاً مالياً، وشكرتْه بلطف. التفتتْ يمنة ويسرة، ثمّ رأت أمامها، ورفعت بصرها نحو السماء، فأحسّت بأن طنجة مدينة كئيبة. بوصلة المُدُن والعواصم شديدة اليقظة لديها. فمن عاداتها، حين تصل إلى مدينة ما، أن تضع حقيبتها، وتغيّر ملابسها، ثمّ تنزل في جولة؛ لتتعرف على كل شارع وكل زقاق.

حين سمعت جين طرقات على الباب، نهضتْ من مكانها، وهي متأكّدة بأن مَن يقف خلف الباب هي السيدة بولز. سبقتْها إحدى الخادمات التي فتحت الباب، وانقضت على السيدة الأمريكية بعاصفة من القُبل والعناق، كأنها والدتها، وقد عادت من السفر. سرّها ذلك كثيراً، فانخرطت هي الأخرى في التقبيل والعناق. حين وصلت جين، وجدتْها على بُعد خطوات من الباب، وحقيبتها في يد الخادمة. فوجئت السيدة بولز بالهزال الذي أصبحت عليه جين. قبّلتْها، ومرّرتْ يدها على شعرها، ثمّ جلستا معا جنباً إلى جنب. بقيتْ تنتظر ظهور بول، وعندما لاحظتْ جين أنها تتطلّع إلى الدرج، أخبرتْها بأن بول في رحلة عمل وبحث. أومأتْ برأسها، وسألت:

- أشمّ رائحة دخان غريبة، ما تكون؟

- إنها رائحة نوع من التبغ المغربي، يُدعى "الكيف".

- نعم، أعرفه، إنه مخدّر معروف. المغاربة يستهلكونه بكثرة. ومَن يدخّنه

Twitter: @ketab_n

- هنا - في البيت؟

- صديق بول، اسمه محمّد المرابط، وقد كان في زيارة لنا.

- تعرّفتُ عليه في أميركا، وحدّثني عنه بول كثيراً.

دعتْها جين إلى الصعود إلى غرفة فوقية، وتغيير ملابسها، وأخذ قسط من الراحة. لكنها كانت تريد معرفة أخبار بول:

- متى يعود من رحلته؟

- الليلة، أو صباح الغد، على أبعد تقدير.

- كيف هي طنجة؟ هل ما تزال على تلك الطبيعة الهجينة والقذرة، فهي مطعّمة بالعديد من التفاصيل الإسبانية؟ هل ما يزال المغاربة يعيشون جنباً إلى جنب مع الإسبان؟

- لم تتغيّر طنجة كثيراً، وعلى كل حال، نحن غارقان في لجّتها. أحببناها كثيراً، وتعلّمنا لغتها، وأصبح لنا أصدقاء مسلمون هنا، نتردّد على منازلهم.

كانت جين تحبّ رفقة المغاربة، على العكس من بولز الذي ينفر منهم بسرعة. وأكثر ما أحبّت في المغاربة حسّ الفكاهة لديهم. وحياتهما التي تشبه حياة الرّحّال، من مدينة إلى مدينة؛ من طنجة إلى فاس، ومن فاس إلى مراكش، ثمّ الرباط، هذه الحياة أكسبتْهما ردود فعل مشتركة إزاء المُدُن.

بقيت جين تتحدّث إلى والدة بولز، وهي تراقب درجة صدمتها، فالمغرب يُحدث صدمة لدى الزائر في الوهلة الأولى، خصوصاً إذا كان أميركياً. ثمّ نادت على إحدى الخادمتين بلهجة طنجية خالصة، فردّت عليها الخادمة، وهي معجبة بلهجة جين التي برعت - حقاً - في اكتسابها. وبولز ، عكس جين، كان يشعر براحة أكبر، وهو يستعمل المفردات والنطق الفاسيين. وكانت جين تسخر من لسانه الفاسي. استمرّت هذه اللعبة، لسنوات عديدة، إلى أن يستسلم بول، ويتعلّم استعمال اللسان الطنجي.

Twitter: @ketab_n

كان التفوّق اللغوي لجين في اللغة العربية نتيجة قضائها فصل خريف بكامله في باريس، تتردّد على مدرسة اللغات الشرقية، وما إن وصلت إلى طنجة أول مرّة كانت تتوفّر على إدراك هام لتكوين الكلمة والنحو العربيين. وزادت على ذلك دعماً وتطويراً لذلك الإدراك الأولي، قرّرت مواصلة دراستها تحت إشراف أستاذ مغربي. وما هي إلا مدّة قصيرة حتّى أصبحت تتحدّث العربية، بطلاقة. ذلك ما لاحظتْه والدة بولز حين تتحدّث جين إلى الخادمتين بعربية طليقة. وبعد كل تلك الأحاديث المتعدّدة اللسان بين النساء الموجودات في بيت آل بولز، سألت السيدة بولز عن ولدها الغارق في الصحراء. فأجابتْها جين بأنها تحسّ بأنه سيصل الليلة، ويرتمي بين أحضانها. وعلى أطراف جوابها، بقيت الأم تنتظر.

Twitter: @ketab_n

-١٤-
الوصول من أعماق رحلة موسيقية

"لن تكون الأمور على ما يرام، يا عمر. ستتناول الطعام على طاولة الجنرال الأميركي. وسأكون أنا في عداد الضباط الصغار. فماذا سيفكّرون في نقيب قديم بانامي غير قادر - تقريباً - على التحدّث بالإسبانية، ويتكلّم الإنجليزية، بلهجة بريطانية؟"

غراهام غرين، "لقاء مع الجنرال"

حين عاد بولز من أعماق رحلته الموسيقية في الليلة التي انتظرتْه فيها جين، وجد الجميع ينتظرونه بشوق، إلا أن والدته كانت في وضع أقرب إلى ما لا تبلغه اللغة. ابتسمت له، وعانقته، وهي تهمس في أذنه:

- "هل كانت تلهو بك الريح، يا رفيق الطيور؟".

لم يسمع مَن في البيت صوت محرّك الجاغوار المزمجر، وهي تحط الرحال مثل سفينة منهكة، لم يسعفها من الغرق سوى تلك الآمال الجديدة والأفراح شبه المنسية على اليابسة. وجد بولز في عبارة والدته "رفيق الطيور" طابعاً شعرياً سامياً، فسألها:

- مرحباً بعازفة البيانو والشاعرة الفائقة الأناقة. لكنْ؛ أين والدي؟ أ لم يرافقكِ؟

- من المحتمل أن يصل غداً، كان يجب أن نأتي معاً، لكنني متشوّقة لرؤيتك والاطمئنان عليكما أنت وجين.

- سآخذكما غداً إلى مدينة الشاون.

- أنت مَن يسوق السيارة؟

Twitter: @ketab_n

- لا، مغربي يُدعى التمسماني.

وهو يحدّث والدته، قام بولز، وشغّل شريطاً للموسيقى الأندلسية، وهي مقدّمة للحديث معها، وإقناعها بأن ثمّة موسيقى رائعة توجد في هذا الجزء من العالم. ما إن انطلق عزف الفرقة الموسيقية، حتّى سألتْه والدته، ما عدّه بول اختراقاً لمتعته الموسيقية:

- مَن رافقك في رحلتك؟

- شخص كندي، يُدعى كريستوفر وانكلين، ومغربي جبلي، هو محمّد العربي الجيلالي.

- كل المغاربة يسمّون محمّداً.

- هذا اسمه محمّد العربي.

- هل سجّلت شيئاً؟

- الموسيقى موجودة في كل مكان وزمان، لكنْ؛ لمجموعة من الأسباب، تعذّر تسجيلها.

وصل بول إلى عدّة بلدات وقرى شهيرة بغناها بتراث موسيقي مبهر. كان يقدّم وثائقه للقائد الأعلى لكل منطقة. وكان غالباً ما يُستقبَل بالودّ والتعاطف، ويجد تعاوناً من طرفه، فيما يخصّ توفير أماكن الإقامة. لكن العثور على الإمكانيات الكهربائية هو العائق الوحيد. وآلة الآمبيكس ١١٠ لا تشتغل سوى بالكهرباء؛ لأنها لا تتوفّر على بطّاريات. وفي بعض الأحيان، كانوا يعثرون على الكهرباء، لكن تياره أو درجته غير مناسبة. وفي الفرصة الوحيدة التي عثروا فيها على مولّد كهربائي بمنطقة "تامنار"، لم يسمح لهم الرجل الفرنسي الذي يملكه استعماله. ثمّ عاد بول ورفاقه إلى الصويرة، وانتظروا ثلاثة أيام؛ ليصل الموسيقيون إليهم على متن شاحنة.

وهو يحكي رحلته لوالدته وزوجته، طرحت عليه أسئلة كثيرة من قبيل:

- إذنْ؛ المغاربة كانوا متعاونين معكم؟

Twitter: @ketab_n

- ليس كلهم. فهناك مناطق عديدة تمّ رفض الترخيص لنا بالتسجيل، فغادرناها دون تردّد. فهناك مَن اعتبرنا جزءاً من مؤامرة، تهدف إلى تقديم المغرب كبلد متخلّف، بلد من المتوحّشين. هؤلاء هم مَن استعمل عبارة "موسيقى المتوحّشين".

هنا تدخّلت والدته:

- هذا أمر صحيح، فالعديد من الموسيقى المغربية التي استمعت إليها في مرّات سابقة، لم أجد فيها سوى أصوات مخجلة، تصدر عن إنسان.

- نعم، وهذا ما يجتنب المغاربة المتحضّرون وصوله إلى آذان الغرباء. لذلك فَمَنْعُنَا من تسجيل تلك الأصوات هو واجب وطني. بل هناك مفكّرون مغاربة كتبوا في الموضوع، منهم، كما أخبرني شكري وغويتيسيلو، مفكّر اسمه عبد الله العروي. لكنْ؛ في رأيي الاستثناء الوحيد هو الموسيقى الأندلسية التي نُنصت إليها الآن. في المرّة القادمة، لن أعتمد على آلة "أمبيكس"، فهناك تجهيزات أخرى، يمكننا تدبّرها أكثر.

لم تنخرط جين في الحوار، تركت أمُّ وابنها يتحدّثان عن الموسيقى، ويخوضان في عالمها إلى ساعة متأخّرة من الليل. نهضت دون أن ينتبها إليها، ولجت غرفتها، وبقيت تغالب النوم الذي صعد بها إلى عوالم مختلفة، بعد أن تناولت قرصين، بدونهما لن تتمكّن من ولوج ملكوته.

في الساعات الأولى من الصباح، وصل من لشبونة شيخ في منتصف عقده السابع إلى مدينة طنجة. هذا الشيخ هو والد بول بولز، الرجل يجد دائماً في طنجة مدينة جذّابة. كان يراها حياً واسعاً للفقراء، لكنه متنوّع، وغني بما لا يمكن مشاهدته في مُدُن أخرى. أما بول؛ فكان يستغرب لاستمتاع والده بطنجة. هذا في سنوات مضت، وماذا عن اليوم، بعد أن غدت طنجة مدينة أخرى مغايرة تماماً؟! فهل ستبقى مكاناً جذّاباً، وحيّاً واسعاً للفقراء، فيه من المتعة ما لا يوجد في غيره؟

Twitter: @ketab_n

كان بول قد اتفق مع التمسماني على أن يعود في ذلك اليوم، بعد أن يزور زوجته وأبناءه، للاهتمام بوالديه. ولأنه رجل حريص على تقديم كل أنواع المساعدة لبول، فقد أتى في اليوم المتّفق عليه، قبل ساعة من وصول والد بول إلى البيت. ولنجاح مهمّة الاهتمام بالشيخين الأمريكيين، قال بول للتمسماني إن والده - على الخصوص - يحبّ الاستمتاع بكل التفاصيل الدقيقة للحياة المغربية التي عادة ما ينتقدها، أو يتجاهلها الزوّار الآخرون. فوالده رجل مختلف. فهو يحبّ الويسكي، ولن يتردّد في تدخين الكيف، ولا بأس أن يأخذهما إلى النادي الأمريكي الموجود بالمدينة. أنصت التمسماني لبول جيّداً، فهو لا يتلقّى أوامر عادية، بل وصايا تخصّ شيخين أمريكيين مختلفين عن بقية الزوّار. فوالدة بول فنانة من الطراز الرفيع، ووالده شيخ، يتصرّف مثل شاب، بحكم طاقاته الداخلية الموجّهة.

أحبّ التمسماني صديقه بول بولز حين كان يتحدّث عن والديه، ويُوصيه بهما. كان لذلك أصداء دينية عميقة في نفسه، فالديانتان الإسلامية والمسيحية وضعتا الوالدين في عنق الأبناء. فما كان من التمسماني سوى التفاني في خدمتهما، كأنهما والدان مسلمان. فقال لبول:

- الله أوصى المسلمين بالوالدين قائلاً في القرآن الكريم: "وبالوالدين إحساناً".

فردّد وراءه بول بعربية صافية:

- إذنْ؛ أحسن بهما، كأنهما والداك.

أثار انتباه والد بول غياب جين، فسأل عنها زوجته وبول. فصعد إلى غرفتها للاطمئنان عليها بعد إخباره بمرضها الذي يشتدّ عليها بين حين وآخر. لم يحبّ العجوز بولز يهودياً واحداً في حياته، لكنه أحبّ جين منذ اليوم الأول رغم أنها امرأة يهودية. كان يجتنب اللقاء بجيرترود شتاين، بسبب يهوديتها، بل يكره حتّى سماع اسمها. لكنه وجد في جين امرأة مختلفة عن

Twitter: @ketab_n

اليهود، وكان يقول إنها يهودية بالخطأ، أو بالصدفة، وأن هذا الشقاء الذي يلاحقها لا يمكن أن يُلاحق اليهود؛ لأن اليهود هم شقاء هذا الكون. وكانت تلك الكلمات تنزل مثل العزف على نفسية بول، فيزداد حبّه لجين، وتزداد محاولاته للنزول إلى أعماقها لمعرفة ما هوى داخلها. وكانت جين - بروعة نادرة - تنظر إلى وجهه، وتقبّله، وتدعوه إلى النوم إلى جانبها. وحين يفعل، تشرد في ملكوت آخر، وتبقى في عناقه، وهي تنظر من النافذة إلى نجم صامت في السماء، ذلك هو قلبها، وقد صعد إلى هناك.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-١٥-
الذهاب إلى مدينة الشاون

" أما تزال نائماً؟

وهذا الصمت، الذي تخرقه من حين إلى آخر وشوشات، ووقع خطى خافت، وأنين مكبوت...أ في حلمي ألاحظه؟!

افتحْ عينيكَ، تعرف."

عتيق رحيمي، "ملعون دوستويفسكي"

فرح والدا بول حين علما أنهما ذاهبان إلى مدينة الشاون.كان ينطق الوالد اسم المدينة بطلاقة، نظرا لسلاسته الصوتية الشبيهة بالسلاسة الموجودة في اللغة الإنجليزية. جُهّزت لهما معاً حقيبة واحدة، فهما مسافران محترفان، على عكس ابنهما بول الذي يحمل معه من الملابس في أسفاره ما يكفي لخمسة أشخاص.

قبل الانطلاق رفقة التمسماني على متن سيارة الجاغوار، أخذ الوالدان وعداً من بول لزيارة مدينة فاس في رحلتهما القادمة، فوالده يحبّ في فاس طابعها القروسطي المفقود. أما سبب عدم ذهاب بول إلى الشاون، وهو مقنع، كونه يريد ترتيب وفرز ما جاء به من رحلته الموسيقية التي لم ينزع عنه غبار طرقها بعد. كما أنها ستكون فرصة للاختلاء بجين التي بدت له متعبة وعليلة أكثر من ذي قبل.

بعد أن فرغ البيت ممّن فيه، هيّأ بولز كأساً من القهوة، وشغّل شريطاً غنائياً، فيه أغاني لأم كلثوم ومحمّد عبد الوهاب وفريد الأطرش. وهو يعدّها موسيقى حقيقية، أصبحت أكثر انتشاراً في المغرب من الموسيقى الشعبية

Twitter: @ketab_n

المصرية التي لوّثت ذوق المغاربة طوال سنين. أحسّ بنوع من الارتياح، وهو يستمع لمحمّد عبد الوهاب. جاءت جين، وجلست جنبه، وذكّرته بأن هذا هو الشريط الذي استمعوا إليه منذ سنوات بعيدة في أثناء رحليتهما إلى تافراوت رفقة كريستوفر وانكلين. أما بول؛ فردّ قائلاً بأنه يتذكّر هذه الأغاني، ويتذكر أكثر موسيقى أحواش التي سجّلها في تلك الرحلة العجيبة. ضحكت جين مغالبة تعبها:

- أنا أذكر تلك الفكرة الغريبة التي جاءتك حين أردت تسجيل أصوات حيوانات ابن آوى التي كان عواؤها يملأ أسفل مرتفعات الأطلس الصغير كل ليلة.

- نعم، لو تمكّنتُ من تسجيلها، لكان ذلك حَدَثاً رائعاً.

في تلك الليالي البعيدة، التي لم تحتفظ بتفاصيلها الذاكرة إلا بصعوبة، كان يأتي في حوالي الواحدة والنصف ليلاً قطيع كبير من ابن آوى، يبلغ حوالي الثلاثين، أسفل السهل، فيمرّون بالقرب من الفندق الذي كانوا يقيمون فيه، فينخرطون في معركة ضارية مع قطيع من الكلاب المحلّيّة. لكن بول أخفق في تسجيل أصوات القطيع خلال تلك الزيارات الليلية المتوقّعة، بسبب توقّف المولّد الكهربائي - دائماً - في الساعة العاشرة والنصف ليلاً.

- تذكر، يا بول حين أخبرنا بوجمعة باغتيال الرئيس كيندي، والجملة التي أرفقها بالخبر:" الأمريكيون يرغبون في مواصلة العيش، وفي الولايات المتحدة، سيكون هناك - فقط - الموت". تذكر؟

نعم، يذكر بول ذلك، كأنه حدث بالأمس. ففي ذلك الشتاء من سنة ١٩٦٣ شرع في كتابة رواية، كان ذلك أفضل طريقة لقضاء الوقت. فانخرط في بلورة حكايات غزيرة من مشاهداته وقراءاته وحالاته الذهنية. ابتعد عن البشر، وعن ضوضائهم عملاً بالقاعدة القائلة" عشْ في عزلة، تعشْ سعيداً". كان يتجوّل في الريف المنبسط، ويكتب ما يخطر على باله. طيلة ستة أشهر، وهو يتجوّل على الطرقات الريفية، ويسجّل في كتاب ملاحظات، وهو يمشي. بهذه الطريقة، كتب "عالياً هناك فوق العالم".

Twitter: @ketab_n

بموازاة هذا التذكّر الذي جعل جين امرأة شاحبة أكثر، كانت الجاغوار تمرُّ من القرى، وتقطع الطرقات. حين مرّ التمسماني جنب حقول القنّب الهندي لوّح له المزارعون، أوقف السيارة، وترجّل منها متّجهاً نحو رجال، يشتغلون بتلك الحقول، كانوا كرماء معه، فأذنوا له بأخذ ما يشاء. لم يصدّق التمسماني الأمر، كيف بدون مقابل؟ لذلك سألهم:

- صالح للتدخين، أ ليس كذلك؟

- لا، إنه لصناعة المعجون.

أخذ التمسماني كمّيّة كبيرة، وبعد وصولهم إلى الشاون، قدّم لوالدي بول اختراعه الفريد: وجبة ممتازة من مخدّر المعجون. كان مذاقه رائعاً، وتأثيره قوياً على ثلاثتهم. آه، كم بدأ كل عِرْق في جسديهما يزهر، بدآ يمشيان باستقامة ورشاقة. ترك كل واحد منهما جسده المتعب وراءه، بعيداً؛ لتبدأ حياتيهما الجديدتين تورقان. بدا، في الشاون، كل شيء ساكناً، ويمكن الإنصات إليه، أو تسميته من جديد.

- هذا مكان مثالي للعزف، وإبداع موسيقى جديدة.

قالت بعفوية السيدة بولز.

- هذا مكان لخلق مصير جديد، الحياة عمل، لم يكتمل بعد.

ردّ العجوز بولز، ونظرته على قمم الجبال المكسوّة بهالة من الضباب الشبيه بالدخان. ثمّ نقلها إلى النوافذ الزرقاء التي تطلّ عليهم مذكّرة إياه بالأزمنة الأخرى. وفي الليل، يصبح منصتاً، يتلذّذ بنقنقة الضفادع، وأصوات البوم والجناديب والنباح المتقطّع لكلاب بعيدة، هناك في كوخ في سفح الجبل. وفي الصباح الباكر، ينهض مع الذاهبين إلى الصلاة، حين تكون المدينة في أقصى درجات الهدوء، يغنّي أغنيات أمريكية، ويدعو الله أن يطيل عمره حتّى تُستنفد متعته بكل الفراديس.

Twitter: @ketab_n

يعود من جولته في الخارج، ويلتحق بزوجته في مطعم الفندق. فقيل له إنها تعرّضت للسقوط؛ إذ تعثرت في حفرة مجاورة للفندق، وكسرت كاحلها. صعد إلى الغرفة، ووجدها ممدّدة، ورجلها مرفوعة إلى فوق داخل جبس أبيض ناصع، وإلى جانب سريرها عكّازان، فألحّت عليه، وهي تبكي للعودة حالاً إلى نيويورك.

لم ينطق بولز الأب بكلمة واحدة، ضمّها إليه، وداعب أصابع يدها، وحين فُكّت عقدة لسانه، قال:

-كما تشائين، حبيبتي.

حين كُسرت كاحل واحدة من أرقّ وأعذب عازفات البيانو، كانت واحدة من أكبر كتّاب النثر في العالم تفقد قدرتها على السيطرة على الكلمات. كما كان واحد من أكبر روائيي ومسرحيي القرن يبحث عن غلام في أزقّة طنجة. أما بول بولز؛ فقد تعلّم عادة جديدة: إخفاء منزله عن الناس كلهم، من القارات جميعها.

عادت والدة بولز إلى نيويورك، وطارت جين رفقة بول إلى لشبونة حين تناهى إلى علمها وجود أطباء جيّدين هناك. ووفى تينيسي بوعده، بمغادرة طنجة، تاركاً وراءه شكري وحيداً ونحيفاً، كأنه أجهد نفسه طيلة آلاف السنين. بدت ملامح وجه شكري شبيهة بملامح الأشخاص الذين شربوا من أنواع الكحول كلها. ولذلك علاقة، لا يجب إهمالها بكل ما يتّخذه من قرارات، وما يتفوّه به من كلام، بل وبملابسه وحلاقة وجهه ذي البشرة الوسطية بين البياض والسمرة. بشرة مَن شرب ليلة البارحة، وسمع كلاماً لا يرضيه. ويزيد من قسوة ملامح ذلك الوجه، أن حامله ليس متحدّثاً لبقاً. ما يعني ألا أحد يأخذ برأيه، مهما كان صائباً. حتّى الصبية الذين يجوبون الشوارع والأزقّة في ليل طنجة، لا يرضخون بسرعة لهذا اليتيم المغربي. اليتيم الذي سُرّ كثيراً لفقد والده.

Twitter: @ketab_n

مَن يعرف شكري سيحسم في أمر عدم اكتراثه لأمر مغادرة تينيسي ويليامز طنجة. فهو جدّ مقتنع بأن طنجة قادرة على جذب آخرين على اللائحة الافتراضية. لكن هذه القناعة قد تنقلب إلى عكسها حين تمرّ أشهر دون وصول رسالة واحدة إلى بيت شكري. فيظن أن فكرة الهرب من طنجة وبسرعة، هي الخلاص؛ إذ لم يعد للإقدام والشجاعة والانتظار أيّ نفع بالنسبة لكاتب سئم من انتظار البواخر والقطارات والطائرات. لكنه - ومن جديد - حين ينام ما يكفي جسده وعقله، وحين يجد نقوداً في جيبه، وكُتُباً في مكتبته، يعود لقناعته القديمة: كل الذين جاؤوا إلى طنجة، وغادروها، ما هم سوى مجموعة أشخاص، لغاتهم مختلفة، وسحناتهم مغايرة، سيعودون ذات يوم؛ ليمارسوا ما مارسوه منذ سنين في هذه المدينة الطينية الساجرة، في نسيان تام أنهم يُقبلون على حياة، سبق أن عاشوها، وعلى كلمات، سبق أن تفوّهوا بها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-١٦-
تحذيرات طنجة

"منذ سنوات، لم يكن قد بقي للعيد الكبير سوى ثلاثة أيام. كنتُ في حاجة إلى أربعين، أو خمسين ألف فرنك، لشراء الكبش. كنتُ جالساً في رحبة هذا المقهى بالذات. كان إلى يميني صديق مغربي أعرفه، وإلى يساري، كان جالساً يهودي أعرفه بالرؤية فقط. طلبتُ من الصديق المغربي أن يسلّف لي ذلك المبلغ. اعتذر لي أنه - هو أيضاً - يعاني خصاصاً في المال. كنتُ أعرف أنه يكذب. بعد انصرافه، قال لي اليهودي إنه يمكن أن يسلّف لي الخمسين ألف فرنك...لم أكن أصدّق أنه سيأتي في المساء، لكنه جاء، وأعطاني المال. أنت ترى، لم يخلف وعده.".

محمّد شكري، "جان جينيه في طنجة"

في تلك الليلة، استعاد شكري كل ما سمعه من تينيسي ويليامز. وتوقّف ذهنه مدّة طويلة عند رغبة تينيسي في العثور على غلام يؤنسه مقابل مبالغ مالية مهمّة، بدت لشكري قريبة من الراتب الشهري الذي يتقاضاه مدرّس مستوى الابتدائي. لكن تينيسي حين لم يتلقّ أيّ جواب من شكري بخصوص هذا الموضوع، نزل بنفسه في رحلات صيد متكرّرة إلى شوارع وأزقّة وحانات طنجة. لم يعد التمساح العجوز يطيق الصبر والانتظار. وتزداد لهفته كلّما شرب كؤوس الويسكي على شرفات فنادق المدينة. فبدأ يخطّط ويرسم، وما إن انتهى ذلك اليوم الذي وقع فيه فريسة لتلك اللهفة الجنسية المفضوحة، حتّى كان في فراشه غلام طنجي جاهز لتلبية رغبات التمساح الأمريكي الأسمر.

Twitter: @ketab_n

عرف شكري بتلك الليلة، وهو يقرأ الصحف العربية والإسبانية في صباح مشرق. كان قد نام جيّداً بعد أن قرأ صفحات من رواية عربية موضوعة عند رأسه، لم يمسسها طيلة أيام. فشعر أن جلد الرواية والحكاية قد اشتاق إلى لمسات يده، وتأويلات عقله. لكنْ؛ بعد أن خلت طنجة من زوّارها الصاخبين، بدأ يجد وقتاً للقراءة والكتابة. ها هو قلبه قد صعد مرتقى الخيالات، بعد أن كان يذهب به إلى الحافات التي ابتسمت له، فبدا شكلها جذّاباً مثل إجاص ناضج. فكل شيء جذّاب هو إجاص، بالنسبة إليه. حين تبتسم له الحافات، يذهب إليها، كما كان يفعل، وهو صبي وغد، في كل وقت، ليلاً ونهاراً، في الساعة، وأخت الساعة. يذهب؛ ليرجّها في الليل الدامس. وكان الليليون يكافئونه بهذه العبارة الإنذارية التي ألف سماعها، وأحبها؛ لأنها هي أسطورته الخاصة: "ها قد وصل شكري رفقة كاتب عظيم آخر، لا نعرف ماذا كتب، وماذا يقول". وما على شكري سوى أن يكون ماكراً مع الطرفين، مع الكاتب، يرضيه، ويؤنسه، ومع السكارى، يفعل مثلهم، كما كان دائماً يفعل، رغم أن "لا حكمة لهم" كما قال لتينيسي، ولجين وبول بولز. لكنه يتحوّل - فجأة - إلى قدّيس، فيقنع جليسه بحبّهم وقبولهم، كما هم "لأنهم خليقة الله، وبذلك فهم يشبهون أشياء كثيرة، خلقها الخالق العظيم". لكنْ؛ حين يميل رأسه؛ حيث تميل الخمرة، يشتمهم، ويتوعّدهم. وهم لا يردّون بشيء، فكيف يردّون، أو يحتجّون على ما يقوله قدّيسهم؟

بقي جالساً في سريره، وهو ينظر إلى اللوحة المتضرّرة المعلّقة على الحائط المقابل له. لوحة رائعة، أهداها له بولز ذات يوم بعيد، قال له إنها هدية "توني"، وشكري لا يعرف مَن يكون توني هذا. لوحة جاءت مع بولز على متن عبارة من الجزر الخالدات، فتضرّرت بماء البحر المالح. لكنها بقيت تمثّل إحدى أهم المنجزات الفنية في القرن العشرين، وإحدى أثمن الهدايا التي قدّمها له بول بولز أيام كانت السماء فوق رأسيهما خالية من الغيوم.

توالت الأيام، وتغيّرت أشياء في قلب بولز وشكري، وبقيت اللوحة

Twitter: @ketab_n

المتضرّرة في مكانها على الجدار الأبيض. مثل مرفأ ذكريات ثابت، تأتيه سفن وبواخر، وتغادر. لذلك كلّما رآها، وهو ممدّد فوق سريره، خمّن أين يكون صاحب "السماء الواقية". لكنه اليوم حضر اسمه إلى جانب زوجته جين، فلاشك أنهما ينتقلان بين المصحّات الأيبيرية لإزالة الضرر الذي أتلف عقل تلك المرأة الرائعة. تخيّل جين ممدّدة على سرير في مستشفى بلشبونة، وبولز ذاهباً آيباً من وإلى المصارف لجلب المال الكافي لتغطية مصاريف العلاج. ثمّ يتغيّر حاله هذا، فيغادر إلى باريس، أو نيويورك، متنقّلاً بين المسارح والشقق، بنفس الطريقة التي كان قبل أيام ينتقل بها بين المصحّات في لشبونة، أو مدريد. وجين المسكينة باقية في مكانها على سرير أبيض، تبحث عن الكلمات التي تضيع منها. وغالباً ما تكون سذاجتها وراء إيمانها الكبير في عقلها المتلف، وثقتها الواضحة في جسدها المتضائل.

صبيحة اليوم الأول في لشبونة، تناولا الفطور في سطح مقهى مجاور للفندق. صعدت جين الأدراج بصعوبة، ولولا مساعدة بول لها، لما استطاعت الصعود إلى ذلك المكان الساحر. كانت تصعد، وهي على ثقة بأن هذا السّند الذي بجانبها سيختفي بعد أول نداء عليه من باريس أو نيويورك. وربما سيختفي بعد دعوة قريبة إلى تناول عشاء في أحد المطاعم، ويعود متأخّراً؛ ليقول لها:"قبلت الدعوة على مضض".

نيويورك وباريس عاصمتان، يشتري منهما بول الآلات الموسيقية دون توقّف. ويعود سعيداً بها إلى طنجة طيلة سنوات قبل أن يشتري واحدة أخرى جديدة، تُنسيه سعادته بالأولى، وهكذا. لكنها تذكر جيّداً ذلك العيد الصغير الذي جمعهما معاً في شقّتهما بطنجة حين عادا من نيويورك، ومعهما آلة أكورديون مستعملة، اشتراها بول بمبلغ مائة وخمسة وعشرين دولاراً. كانت مطعّمة بأحجار الراين والياقوت والزمرد. وظل بول ممسكاً بذلك الشيء العجيب الإيطالي الصنع، ذي الصوت الرخيم. فظنّت أنه سيطردها من السرير؛ لتنام جنبه.

كل ما يدور في عقل شكري - الآن - هو حول هؤلاء الثلاثة: بول وجين

Twitter: @ketab_n

بولز، وتينيسي ويليامز، والثلج الذي يتساقط الآن، ويراه من نافذته. أما اللوحة المتضرّرة من ملح البحر؛ فتوجد في مركز الأفكار والذكريات. مركز الزلزال الذي يصيبه برجّات قوية. إن مَن يهدي لوحة مثل هذه لابد أن يكون إنساناً كريماً. فجأة نهض من سريره، وذهب نحوها، ثمّة شيء تحرّك فيها، لكنْ؛ ما هو هذا الشيء؟ كان بولز قد حكى له عن مغربي شديد السذاجة، وصفها بالجارفة، اسمه عبد القادر، كل ما يعرفه من الحضارة ومنجزات القرن العشرين هو فيلم واحد، وسيّارة واحدة، وقطار واحد، شاهدهما مرّة واحدة في حياته. كان عبد القادر - في أثناء زيارته لأحد المتاحف رفقة بولز - قد أعلن أنه رأى إحدى اللوحات تتحرّك. إنه الشخص نفسه الذي قال لبولز حين رأى جرترود شتاين إنها تشبه الرجال. لذلك ظلّت تكرهه، بل وغداً شغلها الشاغل - حسب بولز - اضطهاده، وتعقّب خطاه، وإحصاء أخطائه. وكان المسكين لا يملك إلا القول: "دعيني وشأني". تذكّر شكري عبد القادر حين خُيّل لشكري أن اللوحة المتضرّرة تتحرّك على الجدار.

لا غرو أن هناك أشياء جميلة في قلب هذا السّكّير النادر. شيء في عظامه أيضاً، وفي جلده الذي لا يخلعه أبداً. وهذا الشيء يعرفه بول بولز، رغم انقطاع علاقتهما. حسناً فعل بول حين أهدى اللوحة التي تتحرّك على الجدار الآن. ربّما الحركة الوَهْمية للوحة نابعة من النافذة التي بدون ستارة، فيظهر من ورائها الثلج وحركة الرياح. فظن شكري أنه يرى لوحة تتحرّك. خصوصاً وأن هذه الشقّة الصغيرة التي يقيم فيها؛ حيث المطبخ والحجرات في وحدة تامة، تميل إلى العتمة التي تُولّد حالة ذهنية، ترى كل شيء يتحرّك.

تساقط الثلج بغزارة طيلة ذلك اليوم، ذلك ما سيذكره الطنجيون طيلة الأعوام القادمة. وقد بقي شكري على حاله حتّى الفجر، بين السرير والمطبخ والحمّام؛ لأن الثلج لم يكفّ عن التساقط إلا مع بزوغ شعاع ضوء الفجر الأول.

Twitter: @ketab_n

-١٧-
أغنية للأمريكيين

" اذهبْ من هنا. لم يبقَ شيء في هذا المكان".

عتيق رحيمي، "ملعون دوستويفسكي"

كان شكري يعدّ حياته من أجمل الحيوات. فكل حياة مليئة بالزخم والانفعال والجسارة والحماس والكتابة هي حياة جميلة. لكنه بقي خائفاً على هذا الجسد الهشّ، الذي رغم الشعر والموسيقى والكُتُب بقي هشّاً. وذلك أمر محزن، بالفعل. لكنْ؛ لماذا الانشغال بهذا الأمر؟! فالحكاية لم تنته بعد. وكل شيء ما يزال مستمراً، ويمكن أن يبقى على نفس حماسه وانفعاله وجسارته. رغم أن أشياء كثيرة، أكثر جمالاً، تأخّرت عن مجيئها. الماضي يمكنه أن يمنع أشياء جميلة من الوصول. يمنعها حتّى من الإطلالة برأسها.

بمحض الصدفة، قفز إلى ذهن شكري موعد، ضربه مع رسّامين شابّين قدما من الجانب الغربي لأميركا. يعرفان بول بولز وجين بولز، لكنهما يفضّلان اللقاء بجين. نسي الموعد الذي اتّفقوا عليه. لقد فات الأوان، فعقارب الساعة تجاوزت الموعد بأربعة وعشرين ساعة. كانت الفتاة تضع على وجهها مساحيق غريبة، لم يسبق لشكري أن رأى امرأة أمريكية تضع خليطاً من الأزرق والأصفر والبنّي على وجهها. كان مظهرها غريباً، زاد من غرابته جلد الثعبان الذي كان يحيط بخصرها، وفروة ثعلب صغير تضعها على كتفها. أخبرت شكري أن جين بولز وضعت تحت تصرّفهما منزل طنجة. وحين سألها شكري:

- هل بول يوافق على الأمر؟

Twitter: @ketab_n

نظر الشابان إلى بعضهما، فبادرت الفتاة بالردّ:

- لا أظن أنه سيعارض؛ لأن البيت كان تحت تصرّفهما - أيضاً - منذ سبع سنوات.

سبع سنوات، ازداد فيها بول حياة، وازدادت جين موتاً. لكن كرمها لم يمت، وحبل عطائها ازداد طولاً.

كيف نسي شكري الموعد؟ نهض من مكانه بعد أن وضع خطة للتجوال في الأماكن التي يمكن أن يوجد فيها الشابان. لكن هدفه السّرّيّ هو المشي لتحريك الدم المتخثّر في جسمه. وذلك يبدأ بكأس قهوة وقراءة الجرائد، وكتابة جزء من حوار مسرحية، كان قد بدأ كتابتها، ونهاية النهايات هي شرب كأس نبيذ، واندساسه في غابة الليل. احتار في أمر الجمع بين تلك الأشياء كلها في هذا البرنامج الحافل. سمع في داخله صوتاً صاخباً، يقول في ما يشبه الولولة:" يا إلهي! ماذا ستفعل، يا محمّد، الخارج خطر عليك، ثلج وسكر، وأنت لا تملك مليماً واحداً في جيبك". تحدّى الصوت، وخرج دون أن يحلق ذقنه، ويسوّي الشعيرات النافرة من مقدّمة رأسه. انفصل عن سريره ومطبخه وأغطيته التي أدفأته في الليلة الباردة الماضية. ترك المنفضة مليئة بأنصاف سجائر مطفأة، وقنّينة نبيذ نصف ممتلئة، وفنجان قهوة، لم يتجرّع منه إلا رشفات صغيرة. هكذا قرّر - فجأة - التخلّي عن شقّته. وهو ينزل الأدراج، رسم في ذهنه خارطة تحرّكاته، وركّز أكثر على الأمكنة التي يمكن أن يوجد بها الشابان الأمريكيان. زادت سرعة خطواته تلقائياً حين تذكّر أن الفتاة قالت له بأنهما قدما طنجة؛ ليعقدا قرانهما على المتوسّط. زواج على المتوسّط في منزل بول وجين بولز. وجين هي التي سلّمت لهما مفتاح البيت دون علم من بول. كيف ذلك؟ أين التقيا جين؟ في مدريد؟ نيويورك؟ باريس أم لشبونة؟ في مصحّات؟ مكتبات؟ مسارح أم مطاعم؟ جين، يا حبيبة قلب محمّد، أين أنت؟

لمح شكري الشابّين الأمريكيين في مطعم رامبراند. تقدّم نحوهما،

Twitter: @ketab_n

وحقيبته الجلدية الصغيرة تتأرجح، وتصدم بطنه. نهضت الفتاة مرحّبة به. أما صديقها؛ فبقي جالساً ومكشّراً، وآثار الشرب بادية عليه. أخذ شكري مكانه بينهما. جاء الخادم، ووضع صحن سلاطة في وسط المائدة. قرّبت الشابة - واسمها غالا، من أب أمريكي وأم إسبانية - الصحن أمام شكري. فلمعت أوراق الخسّ لمعاناً غريباً. فحّتْ رائحة الخلّ التي أنعشت صاحب "الخبز الحافي".

بدا الشاب في سنّه الحقيقي، لم يتجاوز الثانية والعشرين. أما غالا؛ فهي من النساء اللواتي يحتار المرء في تحديد سنّهنّ. لكنها أصغر امرأة أمريكية التقى بها شكري إلى حدّ اليوم. بعد أن دفعت صحن السلاطة نحو شكري، حملت علبة صغيرة مليئة بالسّكّر، ووضعتها أمام حبيبها ستانتون. ولما رأت علامات الاستغراب على وجهه، قبّلتْه، وقالت:

- أعطيكَ السّكّر؛ لأنك حلو المعشر، يا حبيبي ستانتون.

رفع ستانتون صوته بالغناء، وردّدت غالا معه الأغنية. قالت غالا لشكري:

- عنوانها "أغنية للأمريكيين".

سألها شكري:

- وماذا تقول كلماتها؟

- أيها الأمريكيون، أنتم الأجمل والأعظم، لكنْ؛ لماذا تعطون الحلوى للصغار، وتقتلون الكبار؟

عن سبب حزنه، قال ستانتون إنه يحزن كلّما رأى الثلج. فالعواصف الثلجية ذهبت بأرواح ناس كثيرين في سويسرا، التي قضى فيها خمس سنوات رفقة والدته، قبل عودتهما إلى أميركا. قال شكري إن الثلج يذكّره - أيضاً - بسالفادور دالي وزوجته غالا دالي. فسالفادور حين يرى الثلج، أو كل شيء أبيض، يتذكّر الموت، والعواصف الثلجية الرهيبة، والكلاب التي تهجم على الناس، وتفترسهم وسط تلك العواصف.

Twitter: @ketab_n

لم تبادلهما غالا الحديث. تركت حوارهما ينزل من أعلى إلى أسفل، وبقيت ممسكة بكأس النبيذ، ثمّ حملته، وأفرغته في أحشائها دفعة واحدة. ودّعهما شكري، شكر غالا على السلطة، ومازح ستانتون قائلاً بأن عليه أن يفكّ عبوسه. ثمّ اختفى من أمامهما، وفي نيّته التيه وسط الثلج وغابة الليل مثل طائر، لا عشّ له.

Twitter: @ketab_n

-١٨-
غابة الليل

" كان الظلام حالكاً، فلم ير شيئاً. توقّف تفكيره لحظة، قبل أن يتعرّف على الصوت. إنها فتاة سوق الخادمات الحالمة بالسينما. طار النوم - في الحال - من عينيه." .

داي سيجي، "عقدة دي"

لماذا لم يكمل شكري السهرة رفقة غالا وستانتون؟ ذلك أمر محيّر فعلاً. مع أن غالا أبدت استقبالاً حسناً له، رغم أن خطيبها ظلّ صامتاً، ذلك النوع من الصمت الذي يُحدثه السُّكْر الطافح. ذلك أمر يتفهّمه جيّداً شكري السّكّير ذو الخبرة الطويلة، والمحلّل النفسي الفطري.

لا يفكّر المرء كثيراً في حيرة شكري الناتجة عن غياب الأهداف والوجهات، فهو مثل كائن خرافي يعدو منذ قرون دون أن يصل إلى هدفه. ينتقل من مكان إلى مكان، مثلما ينتقل قارئ كتاب من صفحة إلى صفحة. الأمر يسير، ولا أوجاع فيه. ذلك أمر، يُشعره بالاعتزاز. لكن ذكاءه كامن - تحديداً - في أنه عندما ينتهي لقاؤه بشخص ما، يكون قد ضرب له موعداً في يوم غد. يبقى ممسكا بحبله حتّى لا يفلت منه. لا يظن القارئ الكريم أن شكري ترك غالا وخطيبها الثمل دون موعد. ففي يوم غد، سيلتقي بهما في الفندق نفسه، وسيسطّر رفقتهما برنامجاً جيّداً للسهر والتّسكّع.

كان قلب غالا أكثر القلوب الباكية عن ذهاب شكري وتركها وحيدة رفقة خطيبها الثمل. هي التي سمعت الشيء الكثير عن شكري، سلطان طنجة، من فم تينيسي وليامز وجين بولز وويليام بورّوز.

Twitter: @ketab_n

أما شكري؛ فقد وقف وسط زقاق مغطّاة أرضه بالثلج، ثمّ خطى خطوات قليلة؛ ليجد نفسه خارج الزقاق، قريباً من رصيفه الأبيض بياضاً ناصعاً. لقد ترك الناس الأزقّة والشوارع للصوص والشواذّ، وعادوا إلى بيوتهم الدافئة. تأمّل شكري آخر الزقاق المظلم، وشعر برجفة وحشة وخوف. ماذا يفعل هنا، مع أنه كان بإمكانه البقاء في بيته يتأمّل اللوحة المتضرّرة التي أهداها له بول بولز، أو البقاء رفقة غالا وستانتون في مطعم رامبارند، فالحديث معهما، وخصوصاً مع غالا، بدأ يتفرّع مثل ممرّات غابة كثيفة، والغناء بدأت تعلو كلمات قصائده الجميلة.

لعلكم فهمتُم الوضع الذهني الذي يوجد فيه شكري. وأغلبكم ظنّ أنه سيعود للسهر مع الشابّين الأمريكيين. لا، لا، فشكري ليس من النوع الذي يعود لمكان غادره. سيواصل طريقه وسط الزقاق المظلم تحت ندف الثلج التي دفعتْه إلى المشي بخطوات سريعة. كان يمشي ويتعثّر بحفرة، أو رصيف مدمّر، فالعربات التي تجري الدوابّ تلج هذه الأزقة بكثرة خلال النهار.

لا يمكنه العودة إلى البيت بعد أن يكون قد اختار السهر. الليل والثلج يساعدانه على تأمّل الطبيعة الرهيبة للمدينة. في تلك الأيام، كانت طنجة قد بدأت تعرف موضة الملصقات الإعلانية. حتّى الأكشاك الصغيرة، التي عادة ما تكون في زوايا الأزقّة، أو نهايات الشوارع، وجد أصاحبها من الضروري تغطية واجهاتها بالملصقات. وحين تأتي عاصفة مطرية، أو ثلجية، تمُزّق تلك الأوراق الكبيرة التي يبلغ حجمها طولاً معقولاً، يمكّن الناظر من بعيد تهجّي حروفها، والتمعن في قسمات وجوه المشاهير التي تعرض لهم مسرحية، أو فيلماً، أو سهرة موسيقية، أو كتاباً.

لم يقف شكري مطوّلاً أمام إعلان، يُخبر عن عرض مسرحية "رهبة العادلين". فالمسرحية التي شاهدها قبل أسبوع فاترة، والممثّلون مبتدئون، والمخرج معجب بنفسه إعجاباً مَرَضياً. القوّة الوحيدة في المسرحية هي أنها

Twitter: @ketab_n

تُفحِم مشاهديها بمشاعر الحزن. هذا ما تملكه في الحقيقة. فلا جديد في أمر أن الإنسان يشعر بالحزن حين يتركه الآخرون.

كان في وسع شكري أن يتلقّى المسرحية بطريقة مختلفة. قد تكون إيجابية، أو في منتصف الطريق بين السلب والإيجاب، لولا تأثير موقف ويليام بوروز عليه. فبوروز كان من بين الأمريكيين الذين شاهدوا المسرحية. وكان - وهو يشاهدها - يتأفّفُ، ويُصدر أصواتاً غريبة، أزعجت الجالسين جنبه ووراءه وأمامه، ممّا اضطرّهم تغيير مقاعدهم. وكان ينتظر حتّى يرين الصمت في المسرح؛ ليطلق ضحكة ساخرة عالية، يسمعها كل الناس. وفي نهاية العرض، قال لشكري إن هذه المسرحيات تُعرض هنا في طنجة بعد فشلها في قاعات المسرح الأوروبية، وأن المسؤول عن جلب هذه العروض غبيّ وتافه، وينبغي رشقه بالحجارة.

كم كان شيّقاً فعلاً مشاهدة بوروز، وهو يشتم، ويقدّم نظريته في الفن المسرحي. والغريب أنه كان يتحدّث عن الحبكة، التي هي في العمق قوّة تنظيمية، يجب أن تجمع بين أجزاء العمل الفني. هذا الفوضوي الرهيب يتحدّث عن الحبكة. لم يشكُ شكري لحظة أن بوروز تناول كمّيّة من المعجون، فهو لا يرفضه حين يجد طريقه إليه، قبل المجيء لمشاهدة العرض. وهو منتوج مغربي بامتياز، يجعل مستعمله يرى عجائب وغرائب.

كانت الرياح تهب بقوّة في طنجة تلك الليلة، ممّا جعل شوارعها فارغة، ونوافذها مغلقة، وناسها مختبئون من هذا النذير الرهيب. والشيء الذي أضحك شكري هو معطف بورّوز الأسود الطويل المبتل كلّيّاً بالمطر، وقبّعته الأمريكية السوداء التي أعطته مظهر المجرم المأجور، كما تقدّمه السينما الأمريكية. وكانت شتائمه الهذيانية تثير السخرية. يمكن - مرّة أخرى - تشبيهه بتاجر مخدّرات غاضب بعد صفقة خاسرة. لكنه رغم ذلك، فهو شخص مرغوب فيه جدّاً، حتّى من قِبل الفرنسيين الذين يكرهون أيّ شخص، يبدو بالمظهر الذي بدا عليه بوروز. لكن ما أثار شكري - فعلاً - هو ملاحظات

Twitter: @ketab_n

بوروز الدقيقة، وهي ملاحظات، لا يمكن أن يبديها متناول أفيون. لقد كانت - فعلاً - الوطاويط تعشّش في سقف المسرح. لقد سمع شكري - كما جميع الموجودين في القاعة بدون شك - تلك الأصوات الغريبة في الأعلى، وتلك الحركات السريعة التي يُسمَع ضجيجها، وتختفي؛ لتُسمع مرّة أخرى. لكنْ؛ لا أحد ظنّ أنها لوطاويط مقيمة هناك، بشكل دائم. وأن تلك الأصوات والحركات جزء من حياتها اليومية في سقف أعرق بناية مسرحية في طنجة.

أصبحت السماء في طنجة معتمة طيلة اليوم. الكل مستاءون من هذا الطقس الغريب. فطنجة مدينة الحركة والعشاءات الهادئة. ولياليها هي ليالي رزم الدولارات التي يُنفقها الأمريكيون. فقد كانوا يُنفقون كثيراً على المسارح والموسيقى والأكل والشراب في الفنادق ودُور الإقامة. لولا الأمريكيون، لمات الشواذ جوعاً.

في تلك الأيام، كانت في حوزة شكري أكثر من عشرين قصّة قصيرة. لم يراجعها بعد، لكنه مقتنع بأنها شبه مكتملة. لكنْ؛ في نيّته العودة إليها حين يتغيّر برنامج عيشه اليومي. والتغيّر في هذا البرنامج بدأ فعلاً منذ أن سافر تينيسي وليامز دون تحديد وجهته، وبحث جين وبول عن مصحّة أوروبية، تعيد إليها عافيتها، ولو مؤقّتاً. لكن شكري شبه متأكّد بأن أحد الأمريكيين قدم إلى طنجة، وأقام في أحد فنادقها، أو دورها، وأنه سيلتقيه في حانة من حانات الليل.

"أين وجهتك الآن، يا محمّد؟ جسدي يعرف وجهته".

وجد شكري خطاه تقوده نحو رامبراند. الفندق الذي تقيم فيه الحسناء غالا. الشابة ذات الأظافر الطويلة المطلية بالأحمر، الكاشفة عن أسفل ظهرها المليء بالوشم. ما إن وقف في المدخل حتّى لوّحت إليه بيدها، وهي جالسة وحيدة بعد أن صعد ستانتون إلى الغرفة للنوم، حسب ما أخبرته. نزع شكري جاكيتته، وعلّقها على مسند المقعد الخلفي. أشعل سيجارة،

Twitter: @ketab_n

وصبّ لنفسه كأساً من زجاجة الخمر الأحمر الموجود أمام غالا. انتبه شكري إلى الملامح العربية لوجهها. أبدى لها بملاحظته، فردّت بسرعة:

- أنتم العرب حين ترون إسبانياً أسمر، تقولون إن ملامحه عربية. صحيح الدم عربي، لكن الأصوب القول إن ملامحي أندلسية. علماً أن الشقرة أندلسية أيضاً.

لم يجد شكري بدّاً من التوضيح:

- اسمعي، يا غالا، أيتها الأمريكية الجميلة ، موضوع الأندلس هذا لا يهمّني، الأمر انتهى منذ قرون، ولستُ مستعدّاً للعودة ومَسح الغبار عنه. لقد عدتُ إليك؛ لأشرب معك كأساً هادئاً وشاعرياً، هل بالإمكان؟

- طبعاً، نخبك، أيها الصعلوك الريفي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-١٩-
ويليام بورّوز، الاسم الأحمر

"لن تصدّقوا، أيها الرفاق، أننا - نحن الخنازير- نتصرّف بأنانية، إلى درجة أننا نخصّ أنفسنا بالامتيازات، فالعديد منّا يكره الحليب والتفّاح".

جورج أورويل، "مزرعة الحيوان"

مَن يرى شكري وغالا يشعر بالرغبة في الاقتراب منهما. كان شكري يركّز نظره طوال السهرة على أصابع يدها اليسرى. لقد تركت أظافرها تنمو، وطلتْها بصباغة حمراء مثيرة. وحين يُشبع نظره من تلك الأصابع الجميلة، ينقله إلى العلبة الصغيرة المليئة بالسّكّر التي وضعتها غالا أمام ستانتون قائلة: "أنت حُلو المعشر". بعد مرور حوالي ساعة، جاء الذي لم يكن منتظراً: ويليام بوروز. كان تلك الأيام ينتقل دون توقّف بين أحياء وشوارع وحانات طنجة، كأنه يريد حفظها عن ظهر قلب. ولم تكن ساعات النهار القصيرة سوى انتظار لحلول الليل وبداية جولاته مشياً، متنقّلاً من مكان إلى آخر، ومظهر أطراف معطفه الأسود التي ترفعها الريح إلى أعلى، تعطي انطباعاً أنه يركض بسرعة فائقة.

لكن شيئاً غريباً، غير محدّد، بدا على وجه بوروز. ما هو؟ ذلك ما يسعى شكري لمعرفته من خلال قراءته لحركات وأقواله، رغم عدم قدرة شكري على فَهْم كل ما يقوله. أما الحركات، وكثرة الالتفات، واليد التي توضع على الخد...؛ فهي دليل حيرة وقلق. وما هكذا يُعرف بوروز الجسور.

Twitter: @ketab_n

جلس بوروز بعد أن بقي واقفاً، يبحث بعينيه في أرجاء المكان عن شيء مجهول. فهم شكري من كلامه مع غالا أنه التقى بها أول أمس رفقة ستانتون في أحد مطاعم الشاطئ. تناول قطعة مربّعة من الجبن، وبقي يمضغها بمثابرة لمدّة، طالت أكثر من اللازم. خمّن شكري أن هذا المضغ المتكرّر للطعام هو نصيحة، أسداها طبيب أمريكي لهذا الكاتب الذي يقضي يومه في إتلاف معدته. سأله شكري:

- أنت تمضغ الطعام، بجدّ، يا ويليام.

- حسب الأطباء، المضغ أربعون مرّة، هو ما يُكوّن مُضغة سهلة الهضم.

صمت شكري بعد أن صدّق تخمينه. ثمّ عاد؛ ليسأله:

- ما رأي هؤلاء الأطباء في الخمر والأفيون؟

أجابه بوروز بعد تناول نظرة خاطفة مع غالا:

- الخمر والأفيون جيدان، إن تمّ تناولهما في غياب أمثالك.

نهض شكري غاضباً دون تعليق، وأسنانه تصطكّ من الإهانة. اتّجه نحو باب الفندق، فتحه بقوّة، وغادر تاركاً وراءه على المائدة علبة سجائره، وكأساً نصف ممتلئة من النبيذ الأحمر.

خاطبت غالا بوروز:

- كنتَ قاسياً مع محمّد.

- إنه صديقي رغم كل شيء، سنلتقي مجدّداً، ونتحدّث، كأن شيئاً لم يحدث، اطمئنّي.

استغربت غالا لكلمة "صديقي" التي استُعملت في غير سياقها. أ هكذا يعامل صديقٌ صديقه؟! قامت، وتوجّهت مباشرة نحو الدرج، قاصدة غرفتها. تركت ويليام وحيداً على المائدة، يدخّن، ويلتفت في كل الاتجاهات. وجدت غالا ستانتون مستلقياً على السرير، وهو يقرأ رواية أمريكية، قد تكون "السماء

Twitter: @ketab_n

الواقية"، ليست متأكدة؛ لأنها لم تنظر إلى الغلاف الذي كانت تغطّيه كاملاً أصابع القارئ ستانتون. لكن ما يحملها على ظنّ أنه يقرأ "السماء الواقية" هو أن ستانتون اقتناها من مطار نيويورك. سألته متى ينتقلان للإقامة في بيت جين بولز، لكنه لم يجب. بقي مستغرقاً في قراءة الرواية، التي تفصح صفحاتها الكثيرة أنها ذات سرد شره.

حكت له ما جرى بين شكري وبوروز. فأفهمها أمراً، كان غائباً عنه، وهو أن العلاقة حين ساءت بين شكري وبين بول بولز، ستسوء مع كل الكُتّاب الأمريكيين. لا شك أن بولز حكى لويليام شيئاً عن شكري؛ ليتصرّف معه بتلك الطريقة السيئة. لقد حرّضه دون شك.

عبر شكري الشوارع، وهو يفكّر في إهانة بوروز له. كادت تصدمه سيارة، لولا أنه قفز إلى الرصيف. لن يرد اسم بوروز على لسان شكري منذ اليوم. بقي يذرع الشوارع دون حذر. بسبب هذه الإهانات، يطرق المرء باب الإثم. في المرّة القادمة، سيحرّض عليه الشواذّ في كل مكان، في السوق الداخلي، في الحانات والشواطئ. سيرى ما معنى كلمة كرامة حين تقترن باسم محمّد شكري.

في مواقف كهذه؛ أي بعد أن تستنتج النفس الآثار المؤلمة للإهانة، يشعر المرء بالاسترخاء والخمول. وتزداد الآلام حين يتذكّر العقل والجسد معاً ما تعرّضا له في طفولتهما. في زمنهما الهشّ القديم. زمن الأمواج التي كانت تضرب حصى الشاطئ دون رحمة. زمن كانت أم شكري تحكي عن الزمن القادم الذي سيُفصَل فيه أهل الجنة عن أهل النار. وكانت تدعوه إلى التمتّع بالصحة العقلية والجسدية للتفريق بين الزمنين، والدخول إلى زمرة الزمن الأول. كان التفريق بين الزمنين سهلاً وقتذاك، لكنه اليوم أصعب من أي شيء. صعب عليه تذكّر كلماتها وحركاتها، وهي تستعرض فطرتها الإيمانية، بقداسة حدس عبقري خارق، بسيط، لكنه قوي ومتماسك.

Twitter: @ketab_n

انتبه رجل "الخبز الحافي" إلى أنه يحلم حين مرّت بجانبه سيارة صغيرة، يُسمع منها ضجيج فتية صاخبين. لأول مرّة يستظهر على نفسه مقاطع من روايته، سكب فيها عنفاً نادراً تجاه نفسه ومحيطه، بما في ذلك والده، ذلك الأصل الغامض والمتعفّن لكل حكاياته. لقد كان كتابه ذاك لعدوّه الهلامي، العنيف، الشرس. فعينه لم تقع على قذارة مثل اليوم، في هذه الليلة المتاهية، التي دفعتْه فيها قوّة ما إلى مغادرة سريره، والبدء، في الخارج، في رسم لوحة جديدة لوجوده الآني. ولمّا تردّد في داخله هذا الصوت "أيّ عديم وجدان يستطيع أن يهينك هكذا؟!"، شعر بالقيء. ولج زقاقاً قريباً، وبقي ينتظر حتّى يندفع كل شيء في معدته نحو الأرض المليئة بالحفر والطين. ثمّ استأنف نفس الصوت قوله: "ليعد الملاك، ويأخذ الجزء الأعظم من قوة الشيطان".

Twitter: @ketab_n

-٢٠-
خطّ آخر على جلد حمار الوحش

"معذّب بحبّ هذا البلد الذي، كل سنة، أتحمّس إليه في الخريف، وأتمنّى في الأخير الشفاء بالعزم على تأليف كتاب عن إفريقيا. أعمل طيلة الصيف الموالي على ذكرياتي.".

أندري جيد، "رحلة إلى شمال إفريقيا"

بالنسبة إلى جين التي سلّمت مفتاح بيتها في طنجة إلى غالا وستانتون، فمن أجل لوحات ستُرسم في شرفة ذلك البيت. لكنها نسيت خيطاً سميكاً في الأمر، بدونه لا يكتمل النسيج. خيط أحمر، اسمه "جيرترود ستاين". تلك المرأة التي لا يخطئ مَن يراها أنها يهودية، ليس بسبب المظهر الجسدي فحسب، بل بسبب اللباس أيضاً، وبسبب القول، فهي - دائماً - تملك شيئاً تقوله للناس، من أجل تغيير آرائهم. كما أنها تسعى - دائماً - إلى أن تأخذ منهم ما تراه ثميناً، ويمكن أن ينفعها، في غفلة منهم. وخطّتها هي التجزيء المرحلي. فكل ما أخذته من الفنّانين والشعراء والكتّاب، أخذته أقساطاً، وليس دفعة واحدة. كل شخص تأخذه بجدّيّة كبيرة، وحين يتّضح أن قوّته تفوق قوّتها، تطرده من دائرتها، أما حين يُثبت أنه ضعيف؛ فتضطهده حتّى يفرّ بجلده من مملكتها دون عودة.

هي امرأة دائمة النظر حولها. وحين لا ترى شيئاً تبحث عن شيء تراه، وتسجّله في عقلها. كل مَن يقترب منها يسمع صوت أنفاسها المتسارعة. باختصار، جيرترود امرأة نابعة بالحياة. ومَن أراد معرفة ما يدور في رأسها ما عليه سوى الذهاب إلى فندقها الاعتيادي "فيلا طنجة". وإذا حالفه الحظّ،

Twitter: @ketab_n

سيحضر الخطّة التي هيّأتها لطرد الشابة "أنيتا" التي كانت ترافق الرسّام السوريالي الهولندي "كريستيان توني". لم تحظ "أنيتا" بموافقة جيرترود، والسبب مجهول، لكن مَن يعرف جيرترود، مثل بول بولز، يعرف الدوافع دون صعوبة، تُذكَر. برع توني كثيراً في رسم المناظر المغربية التي تخصّص فيها العديد من الرسّامين الأوروبيين: نساء هنّ عبارة عن أشكال هلامية عمودية ملفّعة في جلالب ورداءات الحايك.

لم يفلت أحد من قبضة جيرترود، بما في ذلك بولز. وقد كانت جين زوجته تلاحظ ذلك، وتصمت. كان بول يكتب إليها في الأمور الصغيرة والكبيرة، لكنْ؛ دون أن تقدّم له حلاً لمسألة من المسائل. فمثلاً كتب إليها بول رسالة، حدّثها فيها عن مصاعبه في العثور على بيانو صالح للعزف، أجابتْه أن شوبان كانت لديه مشاكل أسوأ حينما ذهب إلى مايوركا رفقة جورج صاند، وأضافت هذه الجملة التي قضّت مضجع جين حين قرأتْها "فلا تحزن، إنه نفس المصير". حينها قالت جين لبول: "إنها تعاملك مثل طفل". وكان بول يجد أحكامها اعتباطية، معللاً ذلك بمرضها الذي يهبّ كريح قوية، تقتلع كل شيء. إضافة إلى أنه كان منشغلاً بكتابة متتاليات، سمّاها "موسيقى الأقزام"، وهي من وحي أشرطة، بعث له بها أحد أصدقائه من الكونغو. ولأن المتتالية الموسيقية هي تردّدات بشكل منتظم، فكان مرهقاً في أثناء تأليفها، ولم يكن يعطي أهمّيّة لأي شيء في تلك المرحلة.

كانت جيرترود تكره كرهاً شديداً أيّ رسام يأتي إلى طنجة رفقة صديقته. كانت تقول في ما يشبه التحريض:"لكنْ؛ لماذا يأتي رسّام للعمل إلى طنجة، وبرفقته فتاة، لا تفقه شيئاً في عمله؟ عليهم أن يعلّموا صديقاتهم خلط الألوان، وتثبيت الأقمشة على الإطارات على الأقل". حين نطقت تلك الجملة الانفعالية، وصمتت، ردّد الببغاء الأمازوني ما قالتْه حرفياً، فضحك كل مَن كان في بيت بول. ذلك البيت الجميل المطلّ على الجبل، المكوّن من غرفتين بمدفأة، الذي كانت تطيل جرترود في مدحه، كلّما

Twitter: @ketab_n

شربت كؤوس نبيذ معدودة، قرب المدفأة الموجودة في الغرفة المطلّة على مناظر جميلة، تسحر اللُّبَّ.

كانت تلك الزمرة تجتمع في البيوتات حسب الدور. وكانت البيوت المطلّة على الجبال، أو سفوح الجبال الخضراء، هي المفضّلة. وجيرترود هي مَن وضعت ذلك المعيار. على البيت أن يكون صغيراً، يتكوّن من غرفتين، حميمياً، فيه مدفأة، ومخزن نبيذ صغير، وآلات موسيقية وأدوات الرسم، ومكتبة. واجتماعاتها تلك كانت ردّة فعل على البؤس الاجتماعي المحيط بهم في طنجة. البؤس الثقافي أيضاً. فكم من رسّام فطري، طُمرت موهبته. وكم من كاتب موهبته مقموعة. ومعاداة النجاح تكاد تكون عملة رائجة. كانت علاقتهم على ما يرام، المرح هو إلههم. وحين ينضمّ إليهم شكري، يكون الأمر شبيها بإضافة خط أسود على جلد حمار الوحش المليء بالخطوط البيضاء والسوداء. خطٌ دقيق يشبه الشعرة. لكنْ؛ ينبغي الاعتراف أن الشعرة الدقيقة السوداء كانت تشعر سريعاً بالملل والسأم حين تكون بينهم.

دأبت زمرة جيرترود شتاين على تناول الطعام والشراب على طاولة طويلة، توجد على رأسها جيرترود. قبالتها تُجلس رسّاماً يكون أكبر من الحاضرين من حيث السّنّ، ووافداً جديداً على طنجة، ويكون محتاجاً لهذا التشريف، من أجل الإبداع المنفرد داخل حجرة، في فندق، أو في بيت فسيح، بعد أن تكون قد جرّدته من صديقته المرافقة له، ومن حُرّيّته في التصرف. تبقى جيرترود تتحدّث، وتنظر إليه، وهو في الطرف الآخر من الطاولة، وهو يومئ برأسه موافقاً على كل ما تقول. وحين لا يبدي موافقته وتواطؤه بإيماءة من رأسه، تبقى تعيد جملها مرّات ومرّات حتّى يخضع، ويجاريه الآخرون، الذي يعتقدون أن هذه المرأة تملك حلولاً لكل المشاكل، لكل مشكلاتهم على أصحّ تعبير. لكن شكري يرى أن جميع كلماتها تتشابه. ومع ذلك، يجاريها، إذا أراد البقاء معهم ساهراً بينهم، خطاً أسود متآلفاً مع الخطوط الأخرى على جلد حمار الوحش.

Twitter: @ketab_n

والأكثر سأماً من الجميع تكون السيدة جين بولز. المرأة التي تمتلك حسّاً تمييزياً خارقاً. وروحاً إنسانياً قلّما امتلكتْها امرأة. لكن بول لم يكن يعطي أهمّيّة لملاحظاتها. فكان يظن أن كل ما تقوله عن الآخرين ليس صحيحاً، فهي امرأة أدمنت الأدوية، فتضرّر جهازها العصبي، وأصبحت تُصدر أحكاماً من وحي ذلك التأثير. لذلك كانت جين تشعر بالوحدة، وهي وسط تلك الزمرة، بل كانت - حسب تعبير تينيسي ويليامز، الشخص الوحيد الذي يتفهّمها - تحمّل بول المسؤولية في الذهاب بها إلى عُشّ الزنابير ذاك. وكانت - دائماً - تقول لتينيسي أن لا أحد من كتلة البلادة المحيطة بجيرترود يفهم مضامين الفن والأدب. لذلك تراهم يطرحون قضايا جماعية، يجري حولها الاتفاق اضطراراً. بل إن جلّهم يُدلون بآرائهم، وهم سكارى، أو مخدّرين. لذلك كانت حريصة على ألا يلتقي ستانتون وغالا بتلك المجموعة. لا تريد لتلك الأفكار أن تدخل عقليهما. كما أنها متأكدة بأن خلافا وشيكاً سيدبّ بين جيرترود وبين غالا، التي لا شكّ ستشعر بأنها تريد التخلّص منها، وإعادتها إلى أميركا للانفراد بستانتون.

Twitter: @ketab_n

-٢١-
جمعية أعداء الرسّامين
الذين يصطحبون حبيباتهم

("وداعاً" قال الإنسان المحتضر للمرآة
التي يمسكونها أمامه.
"لن نرى بعضنا بعضاً مرّة أخرى").

بول فاليري

شعرت جين أنها أخطأت حين سلّمت مفاتيح بيتها بطنجة إلى غالا وستانتون. كان عليها أن تنصحهما بالتوجّه إلى فاس. فاس هي المدينة التي ستحميهما بروحيّتها من سطوة جيرترود، ودائرتها القامعة. والفندق الأمريكي بفاس مكان آمن لشابين، جاءا من أميركا لهدفين: رسم الكآبة والضوء في شمال إفريقيا. القيام بهذه المهمّة في فاس سيكون شيئاً إضافياً، أما طنجة، فقد نقل ضوءها الفنان الفرنسي ماتيس، دون أن يدع ولو هامشاً صغيراً لفنان آخر، سيأتي بعده. وفيما يخصّ الكآبة، فيكفي رسم مشاهد من سوء المعاملة التي تتعرّض لها الدوابّ في فاس. فرسم، أو مشاهدة، ذلك الجرح الغائر في ظهر الحيوانات، الحمير أو البغال، ونخسها بعصا مثبت عليها مسمار، أو رأس حديدي مدبّب، كفيل بنقل البؤس من أعماق عقل الإنسان إلى الحيوان. فأزقّة فاس التي تلج إليها البغال والحمير محمّلة بالأثقال هي بمثابة معرض لا إرادي يومي للقسوة.

تذكر جين ذلك اليوم الذي رأت فيه رجلاً اسمه محمّد ينخس بغلاً في ظهره بمسمار في يده، والبغل المسكين يقفز مع كل نخس، والدم ينزف من الجرح. وحين نهتْه عن فعل ذلك، نظر إليها نظرة، أخافتها، مع توجيه

Twitter: @ketab_n

المسمار نحوها مهدّداً بنخسها هي الأخرى. ابتعدت جين منه مسافة مترين، وغادرت الزقاق دون إبطاء، وهي تتألم شفقة على ما آلت إليه أمور الإنسان هناك. وحين حكت الأمر لأحد الأصدقاء الفاسيين ردّد أمامها عبارة لن تنساها:" بقي أن تشاهدي كيف يتمّ نخس الإنسان أيضاً، في نفس المكان الذي يُنخَس فيه البغل".

لم يقل بول بولز كلمة واحدة حين كانت جين تحدّث الشابين، فلم ينصح بشيء، أو يقترح أمراً، أو فكرة، تنفع غالا وستانتون. كيف يفعل، وقد ظل وفياً لجيرترود، لا يردّ إليها طلباً؟!. ومع ذلك، كان لا ينصح جين بمرافقتها. وحين يكون تينيسي بطنجة يتركها في عهدته. رغم أنه يُكثر من الشرب، فتجاريه جين بجسدها المتضرّر من الرأس إلى القدمين.

ماذا كان على جين أن تفعل من أجل أن يُقلّل بول من تعاطي كل الأشياء التي تتعاطاها جيرترود؟ هل تُرشيه؟ ممكن. فقد تآلف مع هذه الجريمة، وهو قاصر، يدخل الكازينوهات برشي الحارس الذي كان يغضّ الطرف عن القوانين. لقد فعلت كل شيء، لكن جيرترود بقيت تلعب في عقله.

لماذا فاس، بالضبط؟ كان يجب أن تنصحهما بورزازات، المدينة الجنوبية ذات الأسوار والقصبات وأشجار النخيل والهدوء البدائي العظيم. وعندما تحكي جين لغالا سبب اقتراحها مدينة ورزازات النائية، التي يصل إليها السائح عبر طرق وحلية وعرة ومحفوفة بالمخاطر، ستقتنع. فحكاية طرد جيرترود ل"أنيتا" التي جاءت إلى طنجة من باريس؛ لتلتحق بصديق قديم، يُدعى دين، يعمل في حانة "المنزه"، هي من أكبر الجرائم التي ارتكبتْها امرأة أرادت، بكل ثمن، الدخول إلى صفحات تاريخ الفن. وستستغرب غالا للخطة الهادئة التي اتبعتْها جيرترود؛ لتغادر أنيتا حبيبها الرسّام المقيم بباريس، حتّى يتفرّغ للوحاته. غادرت أنيتا حبيبها الرسّام؛ لتلتحق بحبيبها النادل. وحين علم توني بخطة جيرترود فضّ العقدة، ولحق بحبيبته "أنيتا" إلى طنجة. هذه أمثولة الطرد والتهجير المنهجي التي اتبعتْها جيرترود، وستكرّرها مع أي فنان آخر،

Twitter: @ketab_n

يصطحب معه حبيبته. لو سمعت غالا هذه المذبحة، لفرّت رفقة حبيبها إلى فاس أو مراكش أو ورزازات. هناك سيرسم ستانتون لوحات صغيرة، على طريقة بول كلي الذي يعدّه نموذجه العظيم، ستكون عبارة عن متواليات، تبرز فيها جيرترود في الوسط، والناس يحيطون بها، يسمّي المتوالية "مذبحة في طنجة، وأخرى في باريس".

لكن مراكش - أيضاً - تشكّل خطراً على غالا وستانتون، خطراً بالمعنى الروحي. فهذه المدينة مليئة بالأجانب الذين يديرون الفنادق ونُزُل الإقامة. خطر على بالها الفرنسي وزوجته اللذان يديران فندقاً صغيراً، بالقرب من الحيّ الإداري. همّهما الوحيد حشو عقول الزائرين بأفكار حول نذالة ووحشية المغاربة. الزوجة الفرنسية تنعت الأطفال بالحيوانات. تذكر كيف أن بول ثار في وجهها، ودعاها إلى مغادرة هذا القبر الصغير العفن.

هناك - أيضاً - عجوز ألمانية أرملة، تشرف على نزل صغير هو الآخر، يوجد مطعمه فوق سطح بنايته، ممّا يشكّل خطراً على كل مَن يتشوّق إلى تناول وجبة من وجبات اليوم هناك، والاسترخاء تحت شمس مراكش الرائعة. تلك الألمانية حاقدة هي الأخرى على المغرب، فهي تسمّيه بلد الدوابّ العجيبة. وغيرها كثيرون وكثيرات ينتشرون في المدينة الحمراء، يشترون فيها الدُّور بأبخس الأثمان، ويشتمون أهلها المساكين. ففي تلك السنين، كادت تتأسّس في المغرب ما يشبه جمعية تعادي المغاربة، وتدعو إلى نبذهم فوق أرضهم، وتحت سمائهم، أو استعمارهم من جديد.

ذلك الندم الحارق كله انتقل إلى غالا وستانتون، كأنهما كانا يستمعان إلى هواجسها. فالروح حين تفتح حواراً مع نفسها، يصل صوتها إلى أقصى نقطة. كأنهما سمعا كل فكرة ونصيحة، وشرعا - فوراً - في تطبيقها. وهما في غرفة الفندق، اقترح ستانتون على غالا مغادرة طنجة المزدحمة بالأوروبيين والأمريكيين، إلى ريف مغربي هادئ. أخرجت غالا من حقيبتها المال الذي يملكونه في هذه الرحلة، وقالت:

Twitter: @ketab_n

- هل يكفي هذا المال لتغطية مصاريف الإقامة في فنادق المُدُن الأخرى؟ سمعت أن مراكش تجري فيها مضاربات خرافية. والمسؤولون الأوروبيون عن الفنادق، يرفعون من سعرهم، أو يخفضونه حسب جنسية الوافد. ونحن الأمريكيون سعرنا مرتفع جدّاً.

أجابها ستانتون، وهو يمسك يدها:

- حبيبة قلبي، لقد قلتُ لك؛ لنذهب إلى الريف؛ حيث لا وجود للفنادق.، سنقيم في منازل في الصحراء، أو في الجبال، وهي أرخص. سيجري كل شيء حسب إرادتنا. لا تحزني.

ابتسمت غالا، وقبّلها ستانتون قبلة، جعلت أنفاسهما تتسارع.

Twitter: @ketab_n

-٢٢-
نزهة شابّين يحبّان الأرياف، ويرسمان الغيوم العابرة

"التقيتُ أول مجموعة من المثقّفين المغرورين، وأدركت بأن شاغلهم الأساسي لا يكمن في الآداب، ولا في الفنون، ولكنْ؛ في الحديث عن هذه الأشياء. غير أنني تعلّمتُ منهم الكثير".

بول بولز، "بدون توقّف"

حين علمت جيرترود بوجود شابّين أمريكيين على صلة بجين بولز في مدينة طنجة، بقيت واقفة في شرفة بيتها، وهي تفكّر في مَن سيدلها عليهما. الشخص الذي أخبرها بوجود غالا وستانتون ركّز على موهبة الشاب في الرسم، وقرّبه من أسلوب بول كلي، وشغف الشابة بالتصوير الفوتوغرافي. قد يكون ذلك الشخص هو ساعي البريد بوغالب، صديق محمّد شكري.

وفيما كانت جيرترود تقف في الشرفة، كانت غالا تضحك ضحكاً صاخباً على قمة جبل، وستانتون يجمع أعواداً يابسة لإشعال النار. كان يقفز من مكان إلى مكان مقلّداً قفزات الكنغر. لكن قلبيهما كانا ينتظران بزوغ الشمس التي جاءا من أجلها.

بجوار البيت العتيق الذي اكترياه، من رجل في منتصف العمر، اسمه عبد السلام، تقع بقايا كنيسة إسبانية قديمة. قالت غالا في نفسها وهي تركّز عدسة آلة تصويرها على تلك الحيطان العالية والمائلة:"ها هو مكان سيقضي على دودة الملل التي تنهشنا منذ مجيئنا إلى المغرب". وحين نظر ستانتون إلى غالا، وهي منهمكة في تصوير الآثار الدينية الخالدة، قال لنفسه:"ها قد بدأ الدِّين من جديد، يعود؛ ليغزو قلبها".

Twitter: @ketab_n

كانت غالا شابة مغالية في التديّن، قبل أن تتخفّف من ذلك الغلوّ قبل سنتين، مباشرة بعد ارتباطها بستانتون. فقد كانت إذا سُئلت أي الأمكنة هي الألطف في أميركا؟ فكانت تجيب، دون إبطاء، بأنها الكنائس. أما اليوم؛ فجوابها أصبح هو: التجوال حتّى الإجهاد مع آلة تصوير، رفقة ستانتون.

حين رأى ستانتون عبد السلام يقترب منهما، أومأ لغالا التي كانت منشغلة بتنظيف زجاج عدسة آلتها. وضع ستانتون ما بيده من أعواد فوق ركام صغير، كوّمه قرب الباب، واستقبل بابتسامة مشرقة عبد السلام الذي كان يتقدّم نحوه، وهو يتأرجح في مشيته، كأنه على عربة، تسير على أرض غير مستوية. تلك هي مشية رجل، اعتاد الاستناد على عكّاز، رافقه ثمانية أشهر بعد حادثة أُصيبت فيها رجله بكسر طفيف. أبدى استعداده لمساعدة ستانتون في جمع حطب التدفئة. فهو ممارس عظيم لهذه المهمّة التي يتدرّب عليها سكّان الجبال منذ الطفولة. وهذا معناه أن ستانتون وغالا سيعرفان نوعاً من المغاربة الأصلاء، المستعدّين لتقديم كل أشكال المساعدات. تردّد ستانتون، ثمّ ترك عبد السلام يقترب من ركاب الحطب، ويقوم بتصنيفه وترتيبه حسب حجم الأعواد. وما هي إلا نصف ساعة حتّى صنع أمامهم عمارة صغيرة، متراصّة المواد، الأعواد السميكة تحت، وفوقها تتمدّد الأقل سمكاً، وهكذا. رأت غالا أمام عينيها هرماً صغيراً بديع الصنع. فأمسكت آلة التصوير، والتقطت للهرم متتالية من الصور. ثمّ دعت ستانتون وعبد السلام للوقف قرب الهرم، وبدأت تلتقط الصورة تلو الأخرى. وحين انتهت، قالت لستانتون: "لندع هذا الهرم الصغير كما هو، دون أن نمسّه، ولنذهب إلى أسفل الجبل، لجمع حطب آخر. رأيي أن نترك هذا الإبداع العفوي البديع وراءنا حين نرحل". وافقها ستانتون، اقترب منها، وأمسكها من يدها، وقادها نحو غابة صغيرة في الأسفل، ليس من أجل جمع الحطب، بل من أجل اللهو، كما يفعل الأطفال. التفت إليها، وقال:"أدعوك إلى سباق وسط الأشجار الكثيفة".

Twitter: @ketab_n

بموازاة هذه الحركات النشيطة، وهذا اللهو المحموم في غابة معلّقة فوق جبل، يغطّيه الضباب والثلوج، كانت جيرترود تبحث عن غالا وستانتون في مقاهي وفنادق طنجة. أوصت بوغالب بأن يأتي لها بأخبارهما. وبوغالب حدّث شكري في الأمر. فكان ردّ رجل "الخبز الحافي": "أ لم تتعب هذه المرأة من سجن الفنانين، وطرد الحبيبات من محيطهم؟". وأضاف، وهو يضحك: "لتسجنني أنا، فقد أصبحتُ رسّاماً، ألهو بالصباغة والألوان، ألطّخ قمصاني وطاولتي وأرضية غرفة نومي. بالطبع، ليس ذلك بالأمر الممتع، لكنْ؛ سأُدخل بعض المال". تغيرت ملامح وجه بو غالب وهو يبحث عن الكلمات التي يمكن أن تعبر عن رأيه، بدل كلماته بالتعبير عن مشاعره، فأجاب باقتضاب:"بكل تأكيد سي محمّد".

صارت الأمور أكثر بساطة مع غالا وستانتون. بدءا يغلقان عليهما باب منزلهما الصغير، ويشعلان ناراً داخل برميل حديدي، أعطاه لهما عبد السلام لهذا الغرض. يشرع ستانتون في قراءة بعض الروايات التي جلبها من أميركا، أما غالا؛ فكانت - دائماً - على صواب، حين تتمدّد قربه، وبجانبها قنّينة نبيذ أحمر وصحن صغير مليء بسلطة الخضر. كما اعتادا على سماع سعال عبد السلام من بيته المجاور، فوباء الأنفلونزا هجم بقوّة خلال ذلك الشتاء. وفي صباح الغد حين رأت غالا الشحوب، وقد علا سحنته، ومفاصله ترتجف، ألحّت عليه لزيارة الطبيب، فرفض متذرّعاً بكونها وعكة عابرة، فهُم في الجبل معتادون على الأنفلونزا. لكنها، رغم ذلك، دخلت إلى البيت وعادت، وهي تحمل في يدها علبة مليئة بالأقراص التي يمكنها مساعدته على التماثل للشفاء. مدّ عبد السلام يداً ترتجف، وأمسك بالعلبة، وهو يتفوّه بعبارات الشكر لغالا التي لم تكن تعرف اللغة التي يتحدّث بها، أ عربية أم أمازيغية. وبما أنها لا تفهم اللغتين، فقد ردّت عليه بما يليق كردّ على الشكر، كما لو أنها فهمت أنه يشكرها.

كانت جيرترود في تلك اللحظات تجتمع بأصدقاء من أوروبا، ويتناولون

Twitter: @ketab_n

النبيذ والمقبّلات التي لا يقوى أحد على تناولها، بسبب نسبة الملح المرتفعة فيها. كانت جيرترود معروفة بملوحة طعامها. وكل مَن دخل مطعمها لاحظ أكياس الملح الموجودة في كل مكان. أما غالا وستانتون؛ فكانا يسكران بالفضيلة والشعر والرسم والتصوير. وأكبر دليل على فضيلتهما، هو إهداء ستانتون لعبد السلام معطفاً شتوياً جميلاً، وإهداء غالا لزوجته "عشوشة" حذاء نسائياً، يساعدها في الهبوط إلى الغابة، وجمع الحطب دون أن تتضرّر قدماها. حذاء يقي من برودة الثلج وشوك الغابة.

كانت تظهر على عشوشة آثار معاناة نفسية، من تلك الآثار التي تُحدثها العزلة. لاحظت غالا تلك الآثار النفسية الرهيبة، رغم محدودية معرفتها بالتحليل النفسي، لكنها كانت قد قرأت قصيدة للشاعر الفرنسي شارل بودلير عنوانها "العزلة"، تحدّث فيها، كأنه "سيغموند فرويد" الفرنسي. هذه جملة بديعة، لا يقولها إلا طبيب نفساني، أو آباء الكنيسة:" روح الغدر والإثم تلتهب بإبداع في العزلة". آه، العزلة، يجب أن تكون لك شجاعة روبنسون كروزو؛ كي تتحمّلها، وتجعلها أمراً باطلاً. لكن ستانتون حاول أن يصحّح منهجية ومفاهيم غالا في هذا الأمر قائلاً:" هؤلاء الناس هم عشّاق العزلة والغموض. العزلة شيء صغير، والأطباء منحوها شأناً خاصاً، لا تستحقّه. كيف نتهم أمراً، نحن في الحاجة إليه، في الكثير من الأحيان. سعداء العالم يعرفون قيمتها".

لم تعلّق غالا بكلمة واحدة، اكتفت - فقط - بالنظر إلى قمّة الجبل؛ حيث تحاول أشعة الشمس فصل الثلوج عنه، لكنْ؛ من الواضح أنها ستتعب كثيراً، فالثلج متمسّك بالجبل. حملت آلة التصوير، وصوّبت عدستها إلى هذا التمسّك المبهر.

Twitter: @ketab_n

-٢٣-
إنها تذهب، إنها تبقى

"دورة دموية سيئة. هذا كل شيء. ولا شيء أكثر. لا شيء أكثر. لا شيء خطر. لا شيء أكثر خطورة. يجب التفكير في الجسد. وإنه لشيء منهك التفكير في الجسد. تفكير المرء في جسده هو بالذات. في جسد متّحد. هذا ينهك. والجسد لا يجري التفكير فيه. إنه موجود. أنا أفكّر. أنا أشاهد. أنا جسد، إنه يبقى. إنه يذهب".

كارلوس فوينتس، "موت أرتيميو كروز"

عادت جين وبول بولز إلى طنجة، بعد زيارات لمصحّات في مدريد ولشبونة وباريس، ومواعيد كثيرة، لا تُحصى مع أطبّاء أخصائيين، تمكّنوا من جعل حالتها تتحسّن قليلاً. لو كان الدكتور سيغموند فرويد حياً، لكشف عنها في فيينا. زارت - أيضاً - الكثير من الكتّاب في بيوتهم، والمتاحف المشهورة في عواصم كثيرة. شاهدت مسرحيات وأفلاماً من كل المدارس والاتجاهات، واستمتعت بأمسيات شعرية، أعادتها إلى سحر اللغة العليا. حاورت، وتناولت وجبات مع فرسان الكلمة السامية الذين كانوا يتركون أحصنتهم تضرب بحوافرها الأراضي الصلبة. وتركت روحها تتلذّذ، وتتعافى بالإيقاعات الجلية والمتعدّدة في لغات باريس ومدريد ولشبونة. ولو كان الدكتور فرويد ما يزال على قيد الحياة، لاستمتعت - أيضاً - بإيقاعات برتولد بريخت وهاينريش بول في برلين وهيرتا فولف.

عادت إلى طنجة التي بدت لها مثل قرية مهجورة تحت مطر غزير. كان لابد أن يتدخّل أحد ما؛ كي تعود مع بول الذي خطّط لتركها في مصحّة ما

Twitter: @ketab_n

في عاصمة من العواصم. كان كل شيء على ما يرام، إلى أن سُرقت حقيبة جلدية لبول في أحد المقاهي. رأى بول اللص، وهو يركض، وبقي جامداً في مكانه دون حراك. لم يكلّف نفسه حتّى الصراخ "لص، لص"، كما يفعل جميع الضحايا في مثل هذه الحالة. وحين عاد إلى الفندق، أخبرها بأمر رجوعه إلى طنجة، وتركها هنا حتّى تنهي برنامجها العلاجي. لكنها انتفضت، وشرعت في تهييئ حقيبتها للعودة معه. حاول إقناعها للبقاء، خصوصاً وأن حصص العلاج المتّفق عليها وشكت على نهايتها. لكنها أصرّت، وصرخت في وجهه:" تعود، وتتركني وحيدة هنا، يا بول. هل تعرف ماذا تقول؟". ورغم ذلك، كان سيعود بدونها، لولا تأكيد طبيبها المعالج أنها بإمكانها العودة إلى أمكنتها القريبة إلى قلبها، إلى بيتها وبيئتها التي كانت تحكي له عنها في أثناء الحصص، إلى درجة أنه قرّر السفر إليها في الصيف القادم: طنجة. كان تدخّل الطبيب دامغاً، فأذعن له بول. لكنْ؛ رغم ذلك، كان بول مقتنعاً أن جين أصبحت امرأة ضائعة.

وهي في طريق العودة كانت جين تفكّر في المدينة التي ستعيش فيها بقية حياتها: طنجة أم فاس؟ لحسن الحظ أن أمامها مدينتان فقط. وذلك سيسهّل عليها الاختيار. كانت على وشك أن تسأل بول، لكنها تراجعت؛ لأنها عرفت جوابه مسبقاً: فاس. فالرجل الذي أراد تركها وراءه في مصحّة في عاصمة أوروبية، سيختار فاس؛ لتبقى بعيدة عنه هو الذي سيختار البقاء في طنجة. وفي النهاية، اختارت ما اختاره بول، طنجة، ذات القاموس العالمي، والإيقاع المجازف دوماً.

عادت جين، وفي حقيبتها عدد من الدراسات الطّبّيّة عن حالات مشابهة لحالتها. أثارت اهتمامها حالة امرأة، كانت تتحدّث في الصباح بالإنجليزية، وفي المساء بالإسبانية. ومع هذا الانتقال اللغوي المرضي، كان عقلها - أيضاً - يمرّ من حالة عقلية إلى أخرى. سطّرت جين باللون الأحمر على الفقرة التي حلّلت هذه الحالة، داخل الدراسة التي تبلغ ثلاثمائة صفحة،

Twitter: @ketab_n

درس فيها الطبيب إدوارد سميث حالات عديدة، كلهنّ نساء، على طريقة الدكتور فرويد. هناك - أيضاً - حالة غريبة لامرأة إنجليزية، لا تستطيع التحدّث بالإنجليزية طيلة أسابيع، فكانت تستعين بالألمانية. لقد أصبحت مزدوجة اللسان، بشكل مفاجئ، وحين سأل الدكتور سميت زوجها وأبناءها وإخوتها، نفوا جميعاً أن تكون مزدوجة اللسان منذ الطفولة. فكان الحل هو علاجها بالتنويم المغناطيسي، الذي رفضته جين، بشكل قاطع.

لم تر جين طبيباً مهذّباً وذكياً في حياتها مثل الدكتور سميث. ويمتلك ما يسمّى "فن الطّبّ". فقد كان - دائماً - يحمل في جيبه قطعة بيسكويت، يقدّمها لمرضاه في كل مرّة. مع أول قطعة تُهدَى للمريض من جيب تلك السترة الناصعة البياض، مرفقة بابتسامة مشرقة، يحسّ بأن مسلسل الشفاء قد بدأ، إضافة إلى رحابة المكان الذي يباشر فيه العلاج. ثمّ إلى قصر الزمن الذي يحاور فيه المريض. عكس بعض الأطباء الذين يقضون ساعات مع مريضهم من أجل الإيهام بأنهم ينقّبون عن قطعة ذهب، أو جوهرة ثمينة في حياته، في ذاكرته وجسده، هي مفتاح العلاج. وفي النهاية، تكون تلك الجلسة الطويلة والمملّة ركاماً من الأسئلة التافهة، وتلصّصاً غير مبرّر على الحياة الشخصية لفرد، تقابله لأول مرّة. ثمّ تمرّ - في النهاية - من أجل أداء فاتورة تلك الجلسة، التي تكون - في الغالب - باهظة جدّاً. وذلك شيء طبيعي، فمَن يستمع طيلة ساعة لما يقذفه شخص من أعماقه، لابد أن يتقاضى ذلك الأجر. هذا هو التفسير المنطقي. لذلك رفضت جين جلسات التنويم المغناطيسي، ولم يستطع الأطبّاء إرغامها على ذلك، فربما فهموا أنها تعرف اللعبة جيّداً. هذه الكاتبة، هذه الصائغة الناثرة، تعرف كل شيء عن مهنتهم. ومعها كان الدكتور سميث، عكس الآخرين، ينسى كُتُبه وأبحاثه، ويبدأ يتعلّم أشياء جديدة، وهو عند رأس مريضه.

لم يتدخّل بول في الكُتُب والأبحاث التي بدأت جين تقرؤها، تاركة الروايات والأشعار والمسرحيات. وفي صباح يوم طنجوي رمادي رطب،

Twitter: @ketab_n

خرج بول للبحث عن الإيقاعات في الجبال، كما هي عادته. خرج، وهو يغلق الباب خلفه ببطء. نهضت جين من السرير، وتوجّهت نحو النافذة. رأت بول، وهو يركب سيارة، يقودها مغربي، نسيتُ اسمه. لم ترَ شيئاً أعمق. رأت ما يمكن أن يراه شخص، ينظر من نافذة مغلقة. ليس هناك شيء يجعلها تقف وتنظر. امرأة مثلها تحتاج إلى النظر إلى الخصب في كل مكان. ذلك ما روته لنفسها باكية وحيدة. وأشفقت على بول الذي يقطع المسافات؛ ليزور أمكنة، جلّها سيئ. يأكل فيها طعاماً، يُقعده أسابيع مريضاً في السرير. إنه ذاهب لزيارة لا شيء، ويوهم نفسه أنه يقوم بشيء لصالح ثقافة هذا البلد الذي لم يخرج من بدائيته. يستمع لإيقاعات فطرية، يلتقطها، ويضعها في رأسه. ذلك ما جعلها تضحك. أغلقت النافذة، وعادت لسريرها، وبدأت تقرأ بحثاً للدكتور سميث.

Twitter: @ketab_n

-٢٤-
سيارة تصعد سبّورة رائعة

"من نقطة معيّنة فصاعداً، لا يعود هناك أيّ رجوع. تلك هي النقطة التي ينبغي بلوغها.".

فرانز كافكا

"لا تكن سخيفاً، لا يمكن أن تتركني وحدي". بقيت هذه الجملة تُحدث ضجيجاً في أذن، وقلب، بول بولز، وهو يصعد الجبل على متن سيّارته. الجمل القاسية تتحوّل إلى ثور هائج، يتخبّط في الوحل. في المقعد الخلفي، تتأرجح كُتُب النحو الألمانية، تغيّر مكانها في الطرقات والمسالك المليئة بالحفر والنتوءات. عاد بول لتلك الكُتُب بعد أن هجرها منذ سنوات، وبدأ ينسى أساسيات تلك اللغة. قاموس وكتاب في النحو والأفعال، مَن يراها يظن أنه طالب ذاهب إلى اجتياز امتحان في اللغة الألمانية.

في صندوق السيّارة الخلفي توجد حقيبة، ومسجّلاً كبيراً مع بعض الخيوط الكهربائية الواصلة. خيوط سوداء سميكة، تضطر بول إلى غسل يديه بالصابون، كلّما أمسك بها. فهو يحمل داخله - دائماً - عودة آلام الكبد التي عانى منها منذ سنوات. شعر برائحة الجبل الزكية، وفجأة بدأ يغنّي ذلك النوع من الأغاني التي يردّدها المزارعون في جنوب أميركا. ثمّ أشار بأصبعه إلى الجبل قائلاً لمرافقه المغربي:"انظر إنه يشبه سبّورة ضخمة، كتب عليها أطفال، يتعلّمون الكتابة حروفهم الرائعة".

حين نظر السائق إلى السبّورة، انبهر بملاحظة بول. فالجبل فعلاً حائط أسود ضخم، وعليه حروف بيضاء. وبما إنه يجهل القراءة، فلم يفقه شيئاً

Twitter: @ketab_n

في الحروف المكتوبة، ولا إلى أي لغة تنتمي. لكنها حروف ضخمة وواضحة. نعم، إنها حروف وكلمات تشكّل أغنية تلك القرى الجبلية البيضاء.

في أسفل الجبل، يقف رجل مختبئ تحت سقف من القصب والقشّ، كأنه ينتظر نهاية المطر؛ ليخرج، ويشير بيده للسيّارات العابرة؛ كي توصله إلى السوق الأسبوعي. أشار لهما الرجل بيده، وحين لاحظ غياب أيّ تجاوب معه، وجد ألا فائدة في الإلحاح. فخفض يده، وعاد إلى سقفه القصبي.

يحمل بول في ذهنه موقفاً جاهزاً من سكّان الجبال هؤلاء. فجُلّهم يتاجرون في مخدّر "الكيف". ومَن لا يتاجر يُدمن على تدخينه. فيضطرّه إدمانه إلى التنقّل من قرية إلى أخرى بحثاً عنه. أخرج من حقيبته عدداً من الصور الفوتوغرافية، التقطها صديقه المصوّر الألماني هاري دنهام، يظهر فيها رجال جبليون، يدخّنون الكيف. كان هاري شديد الإعجاب بغليون "الكيف" الطويل، الذي يسمّيه المغاربة "السبسي". التقط هاري عدداً هائلاً من الصور للحياة اليومية في فاس. وقد عانى كثيراً في التقاط تلك الصور؛ إذ كان المغاربة والأجانب على حدّ سواء، خصوصاً الفرنسيون، يصدّونه، ويصرخون في وجهه. لكن بول يختلف مع هاري بخصوص عنصريّته المفرطة تجاه المغاربة. ففي أثناء إقامته بفاس، كان يرفض أن يجلس جوار مغربي في الحافلة مخافة أن تنتقل إليه الحشرات الطفيلية، لكنه لا يرى مانعاً، في أن يحشر نفسه في مقعد ضيق جوار العمال الفرنسيين الذين هم - في الحقيقة - أقل نظافة من المغاربة. غير أن بول لم يصرّح برأيه في هذا الموضوع الذي عدّه شخصياً، إضافة إلى أن الحديث مع الألماني بخصوص عنصريته أمر لا جدوى منه. فالألماني - دائماً - يختار فئة يُفرغ فيها خزانه العنصري. وحين يُواجَه بهذه الحقيقة، يقول إنه نشأ في بيئة مختلفة.

وما كان يزيد من ضيقه هو تحديق المغاربة فيه طوال الوقت. فبشرته الناصعة البياض تثير الانتباه والاستغراب. ومهنته كمصوّر، تفترض أن يبقى خفياً، كما لو أنه غير موجود. فتلك بالنسبة للأوروبيين عموماً هي أذكى

Twitter: @ketab_n

وسيلة للسفر والاستمتاع. كان هاري يتحدّث طوال الوقت عن نظرية، يُسمّيها "اختفاء المصوّر"، أثارت إعجاب بول.

وجد بول أن تصفُّح تلك الصور هي أفضل طريقة لاجتياز صعوبات وعقبات هذه الجبال المخيفة. لكن السائق الصامت أخرج غليوناً، وملأه بالكيف، وبدأ يدخّن واحداً بعد آخر. تصرّف بول، كأنه لم ير شيئاً، مع أن ما قام به لم يرقه. فالطريق مليئة بالمنعرجات والحفر والمخاطر. فالبهائم تعبر الطريق بشكل مفاجئ، وتتسبّب في حوادث سير مميتة. لو كان بول في حالته المزاجية السوداء، لطرد السائق من السيارة دون تردّد، وتركه عرضة للبرد والمطر الغزير الذي كان يتساقط ذلك الصباح. لكن الفكرة لم تخطر بباله، فتركه يتصرّف كما يشاء. وما هي إلا دقائق، حتّى طلب منه حشو الغليون؛ لأنه رغب في تدخين الكيف الذي لم يدخّنه منذ سنة تقريباً. لكنه عاد، وطلب من السائق أن يمدّ له الكيف والسبسي؛ ليحشوه بنفسه، فبول بارع في هذه العملية. فقد علمه المرابط أن حشو السبسي بمثابة طقس، يبدأ بالحشو، وينتهي بالتدخين.

بعد تدخين غليونين، بدأت تظهر على بول وسائقه علامات المرح. شغّل شريطاً من الموسيقى الأندلسية التي كانت - وظلّت - تساعده على الاسترخاء والتأمّل العميق، والوصول إلى السكينة المطلقة. أصبح مزاج بول رائقاً، وبدأ يتحرّق شوقاً لمعرفة ما سيلاقيه هذه المرّة في جبال شفشاون، وما سيكتشفه من كنوز موسيقية وإيقاعية. عاد من جديد، وأخذ صور هاري، ظهرت أمامه وجوه مدخّني الكيف الذين كانوا يضحكون، أما العدسة، دون إخفاء أسنانهم المهشّمة وأفواههم الواسعة والمشوّهة. فتدخين الكيف زائد عدم الاهتمام بتنظيف الفم أعطى وجوها مدهشة وغريبة شيئاً ما. لكنها تعني الكثير بالنسبة لرجل ناصع البياض، كبر في بيئة مختلفة تماماً. وجوه لا تشبه وجوهاً، رآها المرء من قبل. غير أن بول اعتاد عليها، فأصبحت جزءاً من حياته اليومية في كل المُدُن المغربية.

Twitter: @ketab_n

في الشتاء الماضي، توجّه بول وجين إلى الصحراء؛ حيث قضيا ما يناهز الشهر. وهو اليوم يتذكّر انطباعها الأول "بول، نحن في أقل الفضاءات خطراً على وجه البسيطة". وهاهو اليوم بدونها، وفي أكثر الفضاءات خطراً على البسيطة. وقد قاده إلى هذا المكان إحساسه الموسيقي المفرط، وهوسه الأدبي الذي يضغط عليه طوال الليل والنهار. فكلّما قصد مكاناً مثل هذا طمع في كتابة قصّة، أو الفوز، بتأليف فصل من رواية قيد الكتابة. بلد المخاطر هذا، بلد الغموض، هو بلد كتابة الروايات والأشعار والإنصات للموسيقى، والرقص، والتدخين والشرب. بلد بهذه المخاطر واللاّطمأنينة، ينبغي للمرء العاقل أن يرحل عنه.

Twitter: @ketab_n

-٢٥-

سؤال طرحه فيكتور هيغو:
من أيّ شيء تتكوّن السمعة السيئة؟

"تذكّرت المرأة العجوز بجعة، كانت قد ابتاعتها منذ سنين، بسعر مبالغ فيه من شنغهاي. ادّعى البائع - وقتها - أن تلك البجعة كانت - فيما مضى - بطّة، تمدّ عنقها آملة أن تصبح إوزة. انظري إليها الآن. مَن سيأكلها، وهي بهذا الجمال؟".

آمي تان

قال محمّد شكري لنفسه، وهو في سكون الليل البارد: "لأبدأ من جديد". استوى في سريره، وأخذ كتاباً بين يديه. لم يتبيّن بعد هل المعركة التي ينبغي الانتصار فيها ضد الكتّاب الأجانب ينبغي أن تكون معركة فكرية، وأدبية؟ أم معركة التسكّع وتبديد المال والوقت وصحة البدن على الخمر والشذوذ؟ كلهم يذهبون ويعودون على المتن القطارات والطائرات. وهذا الأمر بمثابة معضلة لشكري. معضلة سيزيفية دائمة. فحين يذهب تينيسي، يقرّر شكري العودة إلى ذاته وكُتُبه الجديدة التي تُكتَب في ذهنه، الواحد تلو الآخر. في طريق العودة هذه، يأتي بورّوز، وإن لم يكن بورّوز فبول أو جين بولز.

نهض شكري من السرير، ومرّر يديه على اللوحات والكُتُب، ثمّ التفت، ونظر إلى المدفأة. ما معنى تلك النظرة؟ هل ينوي إحراق اللوحات والكُتُب؟ ليس كل الكُتُب، ولا كل اللوحات، بل التي تشكّل لطخة سوداء فوق قماش أبيض. اللوحات الكبيرة الحجم وغير الصالحة، لا للتزيين، ولا للتأمّل، والكُتُب التي أهداها له كتّاب طارئون على الأدب، جاؤوا، وبعد ذلك، أصبحوا أشباحاً. والشبح في منظور رجل ريفي هو كل ما يُنهى عن الحديث عنه.

Twitter: @ketab_n

فليسرع في تخليص بيته الصغير والبارد منها؛ لينفّذ هذه المرّة وعيده؛ ليحقّق كرهه لكل ما هو زائد في بيته. هذا إضافة إلى أن تلك اللوحات والكُتُب ظلّت تشكّل لشكري رعباً طيلة تواجدها ببيته. وحين يمرض ويلزم السرير، يشعر برعب أكبر.

من تلك الهواجس التي جعلته يشعر بحرارة جسده ترتفع، ولج شكري المطبخ، وأفرغ كيساً من السباكيتي، وفي نفسه رغبة لتهييئ عجائن على الطريقة الإيطالية. ومن الثلاجة، أخرج زجاجة جعة باردة، والتي كان - دائماً- يفضّل احتساءها على الطريقة الإسبانية: رفقة السردين المخلّل. بدا في ملابس المطبخ الناصعة البياض مثل طباخ يصنع الشوكولاتة، أو الحساء. اندهش لكون السكاكين اختفت من المطبخ. أشعل النار على عجائن السباكيتي، ثمّ عاد إلى سريره، وهو يحمل زجاجة الجعة الباردة. بدأ ما سمعه ذات يوم من بول بولز: التحليق الذاتي. كان قد حكى له عن امرأة بريطانية، اسمها ماري. كانت تصرخ وهي في سريرها، تتناول الكحول:"إنني أغادر جسدي"، رغم أن لا أحد يسمعها. لكن السقف كان هو عائقها القوي؛ بحيث لم تتمكّن يوماً من اختراقه.

أطفأ شكري النور، وأشعل شمعة. تناول طبق السلطة الذي تغطّيه قطعة من الجبن، ذكّرته بالثلج في الجبال. وضع ساقاً فوق ساق، ثمّ أنزل واحدة بسبب الألم الذي شعر به في قدمه. بعد لحظة، نظر إلى طبق سردين مخلّل وسباكيتي، وقال لنفسه:"سلطة بالجبن، وسردين مخلّل، ها قد تعلّمتَ كيف تشرب، يا محمّد!".

هل هذا ما ينبغي للمرء أن يقوم به حين تغيب الأسرة التي تتطلّب مسؤولية شخصية عُظمى؟ فَجُلّ الأُسر التي يعرفها مفكّكة، والحبيبات تغادرنَ رجالهنّ بعد وقت وجيز. كل ارتباط بالناس يتطلّب دقّة فكرية، وسلامة نفسية. وتزداد تلك الدقّة كلّما اقترب المرء من منتصف العمر، الذي غالباً ما يُعرف بارتفاع الصوت الحاد، وتزايد النشاطات المكثّفة، السريعة. لكنْ؛

Twitter: @ketab_n

هذا هو الدرس الذي لم يستوعبه أحد. جينيه، بورّوز، بولز، جين، تينيسي... كلهم ناجحون في نظر شكري؛ لأنهم استوعبوا جيّداً درساً، عنوانه "نشاط منتصف العمر، وأصواته الحادّة".

بقي محمّد في جلسة التحليق الذاتي حتّى شعر أنه يخترق سقف الغرفة. وبذلك وجد نفسه يشبه كثيراً شخصية "ليمان" في مسرحية "الهبوط من جبل مورجان" لآرثر ميللر؛ ينام "ليمان" ممدّداً فوق فراش المستشفى، ينتقل إلى أماكن بعيدة وأزمنة ماضية، حقيقية وخيالية. لمّا لمع اسم آرثر ميللر في ذهنه، تذكّر المسرحية التي بدأها قبل أسبوع في "فندق ريتز" وتخلّى عنها. عليه إكمالها ونشرها سريعاً، دون مضيعة للوقت. فآرثر ميللر كتب مسرحيته الأولى "لا يوجد أوغاد" في ستة أيام، مباشرة بعد أن ألهمته رواية دستويفسكي "الإخوة كرامازوف". نهض إلى مكتبته، وعاد وهو يمسك بين يديه رواية دستويفسكي، وجلس فوق السرير جلسة بودية، بحثاً عن الإلهام الذي ساعد ميللر على كتابة مسرحيته في ستة أيام. سيؤلّف مسرحية يمكن أن تُقدَّم على مسرح مكشوف. ستكون مفاجأة للأمريكيين على الخصوص. لكنْ؛ مَن سيمثّلها؟ مَن سيُخرجها؟ على أيّ خشبة؟ سيؤجّل هذه الأسئلة حتّى يلتقي تينيسي ويليامز، فهو الوحيد القادر على الإجابة. لكنْ؛ قبل تينيسي، عليه العودة إلى المسرحيين الإغريق، فهُم وحدهم المميّزون بشكلهم المسرحي الرائع. لم يعد أمامه سوى طلب العون من إسخيلوس، ومن ذكرياته الخاصة. بقي في مكانه وديعاً، فضولياً ومتلهّفاً لشيء أكبر منه قادم كالسيل. أغمض عينيه، وبقي يخترق السقف، عائداً إلى أزمنة ماضية، نازلاً إلى عمق سحيق في ذاكرته، التي قال له عنها جون جينيه "إنها ذاكرة رسّام".

بقيت الشمعة تضيء الغرفة. حملها، وكتب عليها بمقبض الملعقة الصغيرة الحادّ اسمه: محمّد شكري. وحين أعادها لمكانها، بقي يقرأ ذلك الاسم المحفور الذي بدا غريباً عليه. لكنه عاد، وتخيّله مكتوباً بنفس

Twitter: @ketab_n

الرسم على غلاف مسرحيته التي اتخذ قراراً بإنهاء كتابتها خلال ستة أيام. بدأت قطرات الشمعة تسيل على الحامل النحاسي. حمل شكري "الإخوة كرامازوف"، وبدأ يقرأ بصوت مرتفع، كأنما هناك مَن يسمعه في الغرفة الأخرى. ثمّ رفع من صوته، كأنما هناك شخص واقف على رصيف الشارع يُنصت لتلك المقاطع السردية العظيمة. وكانت الشمعة رابطة قوية بين شكري وما يدور في عقله ودستويفسكي وإسخيلون وأرثر ميللر. بقيت رابطا قوياً حتّى نام شكري. كانت خاتماً قوياً، يربط إلى الأبد بين رجال وأفكار عاشوا في أزمنة وأمكنة مختلفة.

Twitter: @ketab_n

-٢٦-
افتحي ساقيك؛ لتتزلجي أفضل

"لا توجد كراسي هوائية تلك الأيام، كما تعرفين، فعليك أن تتسلّقي الجبل على زلاجاتك، فعظامك مرنة، تتزلّج النساء بشكل أيسر؛ لأنهنّ يفتحنَ أرجلهنّ، بشكل أوسع. احصلي على الإثارة، وشاهديهنّ، وهُنَّ يتسلّقنَ".

آرثر ميلر

عادت غالا إلى حقيبتها التي لم تفتحها منذ أيام. من عادتها ترك أمتعتها محزومة، كما هي؛ لأن مطاردة المجهول في الطرقات والجبال والقرى والشوارع يجعلها لا تهتمّ سوى بصورها، وبآلتها، وبالوجوه التي تلتقيها. لكنها عادت هذا الصباح إليها؛ لأنها أرادت التزلّج على الثلج. أخرجت الزلاجات وبزّة الثلج وزوج القضبان، ووضعتْها فوق السرير. ثمّ عادت، وأخذت مجموعة من الكُتُب الإثنوغرافية التي تساعدها على فَهْم بدو القرى والجبال. أخرجت - أيضاً - إنجيلاً مغلّفاً بالجلد، يعود لوالدتها. يبدو أن غالا حريصة على أن يطغى كل ما هو أمريكي على ما عداه، تحرص أن تكون تصرّفاتها وعيشها أمريكيين حين تكون خارج أميركا. ليس من عادتها حمل الإنجيل معها حين تنتقل من نيويورك إلى واشنطن مثلاً. إنها تكون سعيدة حين تجد شيئاً أمريكياً، تبرزه حين تكون بعيدة عن أمريكا. يبدو ذلك الشيء عظيماً أمامها وواضحاً وعملاقاً، فتسعد أكثر بنظرة الانبهار بهذا الشيء الأمريكي في عيون الآخرين. الناس في المغرب يتمون إلى تقليد مغاير: إخفاء ما لديهم؛ ليتيحوا الفرصة للغريب؛ كي يُظهر ما عنده في حياته وشكله ولغته ودينه. بل إن غالا، وهذا أمر غريب فعلاً، شرعت - وهي في منزلها الريفي هذا - في نسخ

Twitter: @ketab_n

بعض الأعمال الموسيقية بخطّها الموسيقي الواضح والرائع، الذي كثيراً ما أبهر بول بولز، إلى درجة أنه عدّه نسخاً مثالياً. وغالباً ما كانت تقوم بأعمال النسخ حين تهبّ عاصفة ثلجية في القرية الجبلية، فلا يكون في مقدورها التزلّج أو قراءة الإنجيل.

في ذلك اليوم العاصف، وبينما غالا تراجع ما نسخته من أعمال موسيقية، عاد ستانتون بعد مدّة قصيرة من مغادرته البيت؛ إذ كان على موعد مع عبد السلام قصد النزول إلى السفح، وقال، وهو مبتهج:

- تصوّري مَن جاء إلى القرية؟

- مَن؟ أجابت غالا دون أن ترفع رأسها عن الأوراق الكبيرة الحجم التي تمسكها بعناية بين يديها.

- بول بولز. هذا ما قاله لي عبد السلام.

رفعت غالا رأسها مندهشة:

- صحيح؟ أين هو الآن؟

- إنه في سفح القرية، رفقة سائق وأجهزة موسيقية. يبدو أنه جاء لتسجيل إيقاعات موسيقية جبلية.

قامت غالا من مكانها، وارتدت معطفها الشتوي:

- ما رأيك ننزل - الآن - لنلتقي به.

- ما تزال العاصفة الثلجية قوية. لننتظر حتّى تهدأ.

نظرت غالا ملياً إلى ستانتون، كأنها تُنصت جيّداً إلى كل كلمة يقولها: "لننتظر حتّى تهدأ العاصفة". ربمّا بين هبوب العاصفة وهدوئها، يغادر بولز القرية. ستنزل، وتبحث عن صديقها العظيم، حتّى لو اضطرها الأمر، لقطع تنفّسها، كأنها في قاع البحر، تبحث عن لؤلؤة.

Twitter: @ketab_n

رغم كل شيء، لا تزال غالا تجعل ستانتون يُنصت إلى آرائها، ويحاول العمل بها إرضاء لها. قال، وهو يبتسم:

- انتظري حتّى أغيّر معطفي وحذائي.

وضعت غالا الأوراق المنسوخة فوق المائدة. تنحنحت، وتوجّهت نحو النافذة؛ لتطل منها على الخارج الذي ذكّرها بياضه وهدوؤه بطفولتها في جبال كندا. فعلت كما كانت تفعل وهي طفلة، أخذاً بنصائح والدها الخبير في رياضة التزلج، وضعت شالاً صوفياً حول عنقها وطاقية فوق رأسها، ووقفت أمام المرآة، وجذبت الطاقية إلى تحت؛ لتغطّي أذنيها. حين كانت طفلة، كان طموح غالا هو تسلّق كل جبال العالم الشاهقة، والتزحلق على ثلوجها. كانت والدتها تحاول كبح هذا الحلم الجامح، لكن والدها كان يوافقها بفخر. وكان يهمس في أذنها كلّما تعكّر صفو والدتها من فرط تكرار غالا لرغبتها:"أمك تقصد أن تبدئي بتسلّق التلال أولاً، ثمّ حين تكبرين، اجعلي من الجبال مرتعك". لكن غالا كانت تحتجّ بصوت مرتفع:"لكنْ؛ لا يوجد ثلج على التلال". لم تكن تعرف أن تلك الإجابة غير صحيحة، لذلك كانت تجهش بالبكاء، وتمتنع عن تناول طعامها حتّى تَقبل والدتها في الأخير. الأمر الذي يضطر والدتها إلى تقديم حجّتها:"خطر أن تتزلجي في الجبال في سنّك هذا، يا غالا؛ لأنني لن أراك منذ اليوم. وحين تسقطين، وتُكسر رقبتك، أو ساقك، لن أسمعك حين تبكين وتصرخين، يا بنيتي". وحين تنظر غالا إلى والدها المتواطئ معها طلباً للعون، يوافق برأسه ما قالتْه والدتها، ثمّ يهزّ كتفيه، ويميل رأسه إلى اليمين تعبيراً عن أسفه.

وهي تتذكّر سنوات التزلّج الطفولية، وسّعت غالا بين رجليها أقصى ما أمكنها، لترى هل بإمكانها التزلّج لشكل أفضل. ثمّ توجّهت نحو الباب، وهي تحمل زلاجاتها، دون نسيان أن عليها أن تهيّئ وتردّد الكلمات والجمل التي ستقولها لبول بولز.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-٢٧-

هل الشخص الناجح هو مَن يقتنص الفرص؟

"إن هذه الشمعة قد احترقت من طرفيها طوال الليل دون أن تنطفئ. إن هذا النكاح لن ينفذ أبداً".

آمي تان

رحلة بولز إلى الجبال ستقوده، في هذا الفصل البارد، إلى بيت من أفقر بيوت الجبال: بيت عشّوشة وعبد السلام. وستكون غالا هي مَن استضافته بعد إلحاح منها. غير أن ستانتون بقي متحفّظاً من هذه الدعوة. فالبيت صغير، يشبه الكوخ، وأثاثه متواضع جدّاً. إضافة إلى أن بولز لم يقبل - يوماً- بهذا النمط من العيش، على خلاف السيّاح الأجانب. المكان الحقيقي لهذا البيت هو القرن الثامن عشر، وليس القرن العشرين.

ما تزال غالا تجهل الظروف والصدف القوية التي كانت وراء تأجيل اللقاء ببولز إلى هذا اليوم. فبقدر ما موهبته الموسيقية الموهوبة من الله، بقدر ما هو شخص مُبتلى بها، من قِبل الله أيضاً. ذكّرها ذلك بما كتبه "توماس مان" عن الموسيقي العبقري "أدريان ليفركون" في رواية "دكتور فاوست". صحيح أن الموهبة يمكن أن تكون ابتلاء. وإلا فما معنى أن يبقى بولز هكذا معلّقاً بين السماء والأرض، بين البحر واليابسة، بين القارات واللغات والثقافات؟! لكن الخلاصة النهائية يمكن استيعابها من هذه الجملة: موسيقي يركض وراء الألحان، فيما زوجته وحيدة تتألم. كان عليه أن يدرك أنه ارتكب خطأ كبيراً، مثلما ينتبه حين يرتكب خطأ فنياً.

بالنسبة لمَن يراقب مجريات الأمور في القرية، سيرى رجلاً أمريكياً - دون

Twitter: @ketab_n

تمييز ناجح بين أميركي وألماني أو فرنسي مثلاً - يسير وراء غالا، تلك المرأة التي تعلّق آلة تصويرها فوق صدرها رغم ارتدائها ملابس الثلج. أما ستانتون؛ فقد كان يحمل في يده زلاجاتها، ويلهث وراءها مثل بولز تماماً. وحين بدؤوا يطلّون على السفح، استشعر بولز سعادة، انفرجت معها أسارير وجهه. فخاطبته غالا في اللحظة المناسبة:

- الآن يمكنك الاقتراب من بيوت الناس الذين أنتجوا إيقاعات، من أجل تخليد هذه القرى المَنسية.

سمع بولز ما قالتْه غالا، وأراد أن يثمّن ما قالته، غير أنه ظلّ مشغولاً باستنشاق عبير أزهار غير مَرئية، تغشي هذه الأشجار التي تتّشح بلون خاص في هذا الفصل. لكنه فضّل الإجابة على هذا النحو:

- دور هذه الأشجار القديمة والضخمة، ليس - فقط - الإزهار، والحفاظ على التربة، ومنح الظلال في الصيف، إنها - أيضاً، وأساساً - تمنع العربات من الصعود والنزول. هي مَن حافظ على الطابع البدائي للقرية.

استبدل بولز حديث الموسيقى والفنون إلى حديث عن الأشجار والعبير، فهو مولود في أيام فصل الإزهار. بعد أن قدّمت غالا لبولز وستانتون الشاي، بادرتْه بالسؤال عن جين. فأجاب بولز دون إبطاء، كأنه حضّر جواباً للسؤال:

- لقد أمضينا ساعات وساعات عند المحلّلين النفسيين. الأمر يتكرّر: يستدعي المحلّل جين في ساعة محدّدة من النهار، ويُلزمها بالكلام، وهو يستمع إليها، ثمّ يبدأ بالتحدّث إليها ويُلزمها بالاستماع. دون أدوات، دون أدوية؛ إذ لم تعد هناك أدوية، وهذا شيء أراحنا كثيراً. لا شيء آخر غير الخطاب والإنصات بالتناوب بين المحلّل وجين.

- لكنْ؛ ماذا يمكن أن تفعل الكلمات للمريض؟ سأل ستانتون.

رشف بولز من كأسه، وأشعل سيجارة:

Twitter: @ketab_n

- لقد كان فرويد يدعو المحلّلين إلى الإصغاء. ومنهجه هذا منتشر - الآن - في أوربا.

- يقال إن فرويد كان يتكلّم كثيراً. قالت غالا.

سألهما ستانتون:

- تذكران ماذا سمّى هاملت الكلمات بازدراء؟ أطلق عليها اسم "عيدان القشّ".

لقد دخل ستانتون وغالا حلبة بولز التي يجيد اللعب فيها:

- هذا ينبني على فَهْم طريقة فرويد الشاملة. فهو يعدّ الكلمة هي أصل النشوة، يعدّها فعلاً سِحْرياً. وكان - دائماً - يؤكّد أن الكلمات ما تزال تحافظ حتّى اليوم بكثير على قواها القديمة. وأنا أظن أن الكلمات قد تغلغلت إلى روح جين، وأحدثت تغييراً عظيماً في سلوكها. إنني من أنصار هاملت:"كلمات، ومزيد من الكلمات". لحس الحظّ أن طريقة الطبيب"بروير" المعتمدة على الأدوية قد انهارت تماماً في أوربا أمام نظرية فرويد وطريقته في العلاج والتحليل. لو علمتْ أنكما تقيمان في مكان بهذا الجمال، لجاءت معي جين، وسيكون الأمر شبيهاً باستكمال العلاج.

قالت غالا بحماس:

- ماذا، يا بول، لو أرسلت سائقك إلى طنجة، ويأتي بجين إلى هنا؟

أعرب بول عن موافقته دون أن يكشف عن تخوّفه من رفضها. فقد تركها في حالة تركيز قصوى. حتّى إنها لم تسمح له بالاستماع لأسطوانات موسيقية، جلبها معه من مدريد؛ حيث صرخت في وجهه:"اذهب أنت وأسطواناتك، واصرخا في مكان آخر بعيداً عنّي". وكل ما فعله بول هو إسكات الموسيقى، والانتقال من غرفة إلى أخرى، وهو في ملابس النوم، بعيداً عنها. بل إنه في تلك الليلة نام في الغرفة القريبة من الحمّام. فهو اليوم يشعر، أكثر من أي

Twitter: @ketab_n

وقت مضى، بأن مسؤولية الاهتمام بجين تقع على كاهله، حسبما أخبره طبيبها المعالج.

حين شعر بول بأن الحديث أصبح مضجراً، وليس ذلك ما جاء من أجله، اقترح على ستانتون وغالا الخروج للقيام بجولة في الجبل. اقترحتْ غالا أن يتفرّجا عليها، وهي تتزلّج فوق الثلج. أضاءت شمعة، وضعتها في زاوية الغرفة، وأمسكت بول من يده، وسحبته وراءها. بدت غالا في غاية السعادة، وهي تعود إلى كنف الثلوج البيضاء. وهما أمام المنظر الأبيض المذهل، توجهت غالا إلى بول بسؤال مفاجئ:

- مَن هو الشخص الناجح في نظرك؟

- هو مَن يقتنص الفرص. بهذا المعنى، نحن أشخاص ناجحون، يا غالا.

Twitter: @ketab_n

-٢٨-
القلب قبر الأيام الماضية

"نتساءل ما الذي يحصل للأيام التي لم تعد؟ وهل يقوم قلب الأنسان مقام القبر لها؟. كلّا، صدقوني؛ إن كل شيء ليبدو ميتاً، لكنْ؛ في الحقيقة، ما من شيء يموت".

جون لوفيفر دوميبخ

هل يمكن القول إن قلب جين بولز أصبح مقبرة للأيام الماضية؟ بكل تأكيد، الجواب هو: لا. والدليل أن جين قبلت العودة مع سائق بول إلى تلك القرية الجبلية الساحرة "تنقوب". في البداية، لمّا سمعت الطرقات على الباب، ثمّ رأتْ وجه السائق، كاد قلبها ينزل إلى قدميها. وكما ستظن أي امرأة ودّعت زوجها منذ يومين إلى رحلة ستدوم أسبوعاً على أقصى تقدير، ظنّت أن ثمّة مكروهاً قد حصل. أرادت أن تُغلق سمعها وبصرها حتّى لا تسمع، أو ترى. استولى عليها رعب، لم تعرف مثله من قبل. ذُعر غريب، شلّ حركتها، وغيّر من وظائف أعضاء جسدها. بدأت ترى الأطياف أمامها. عادت، وأغلقت باب غرفة النوم الذي نسيتْه مفتوحاً حين سمعت الطرقات على الباب.

كما كل الناس، خُلقت جين بموهبة خارقة، قلّما توفّرت عند امرأة أخرى، هذه الموهبة هي قراءة أفكار الآخرين من عيونهم، ومن رجفات أيديهم. نقلت بصرها بين يدي السائق وعينيه. عادت إلى المطبخ، ورجعت، وهي تحمل بيدها علبة زجاجية صغيرة، بها طعام، هو خليط من اللحم المفروم المشوي وسلطة من الخضر، مَدّتْها للسائق، وهي تقول:

- زاد الطريق.

Twitter: @ketab_n

عادت من جديد إلى الغرفة، أسدلت الستائر، وغيّرت ملابسها. ثمّ سألت السائق من جديد:

- مَن يوجد مع بول؟

أجابها، وهو ينقل العلبة من يد إلى أخرى:

- معه رجل، اسمه ستانتون، وامرأة اسمها غالا.

- يا إلهي! غالا، أمر عجيب، انتظرني.

عادت من جديد إلى داخل البيت، لكنْ؛ هذه المرّة إلى المكتبة، وعادت، وهي تحمل روايتها "امرأتان حازمتان"، ورواية بول "السماء الواقية". لطالما حدّثتها غالا عن روايتها، وعن رواية بول. تذكر كيف كانت غالا تجيب حين تُسأل عن شخص ما جاء الى طنجة:" كان في مكان ما؛ لقد اجتاز مناطق شاسعة عائداً من اللامكان". فقد كانت تردّد هذه الجملة الفلسفية من رواية "السماء الواقية". كما كانت تؤكّد أن كل الناس يشبهون بطلها "بورت"، الذي يحلم، ولا يتذكّر تفاصيل أحلامه.

خطر على ذهن جين سؤال مفاجئ:

- هل القرية مغطّاة بالثلوج؟

- نعم، الثلج في كل مكان.

- هل هو ثلج ناصع البياض؟

استغرب السائق السؤال.

- نعم، رغم أنني لم أفهم سؤالك.

- هناك ثلوج ملوّثة. ليست كل الثلوج بيضاء. على كل حال، انتظرني سأعود لجلب ثياب الثلج، ثمّ مدّت الروايتين له، فأمسكهما بين يديه، وهو يدرك أنه يمسك شيئين ثمينين.

انطلقت السيارة وسط الشارع الرئيس، ثمّ انعطفت انعطافات لا تُحصى،

Twitter: @ketab_n

يميناً ويساراً. وجين تتأرجح كأنها على سيارة سيرك. بعد الأيام، والفصول، والأعوام، ها هي تنطلق من جديد إلى جبال الثلوج القروية. ومرّة أخرى وراء بول، بوصلتها التي لا تنتهي، ولا تنفد حساسيتها. بوصلة خارقة، تعرف طريقها وسط الحرائق والأمطار والرياح التي يقذفها قلب الأرض المتفحّم. حين بدأ جسدها يعمل حسب توجيهات ذاكرتها، شعرت أنها بدأت تفكّر كما كان يفكّر الشاعر "مالارميه": "بعيداً عن التقهقرات القديمة والشُّعل القديمة التي يسمعها، التي يُحسّها الواحد". قالت لنفسها:" كُفّي، يا جين عن التفكير مثل مالارمي، ذلك مضرّ لجسدك الذي لم يتعافَ بعد". وبقيت تُنصت لمحرّك السيارة الذي تسمعه، وهو يغنّي أحياناً، وهو يصرخ أحياناً أخرى، وهو يئنُّ أحياناً ثالثة. كانت السماء، والأشجار على الطريق، تشهد عبوراً لطيور سريعة وبردانة. تحطّ فوق شجرة، وتنتقل إلى أخرى. يا ليتني ذاهبة إلى صيد الطيور". قالت في همس. جمال الجبال المشجّرة جعلها تحسّ رغبات كثيرة، مزدوجة، مضاعفة ومتناقضة. تذكّرت - أيضاً - كلبها، وهي طفلة، ذلك الكلب الأبيض الذي يحمل بقعة سوداء على أذنه اليمنى، وأخرى على ذيله القصير. للأسف لم يمكنه أن يبقى حيّاً إلى اليوم. وحين رفعت عينيها اللتين اتّخذتا لون عيني امرأة تتذكّر، ركّزت على الأشجار الجبلية الثابتة، المتحمّلة للتضحيات في عراء البرد والثلوج. وللحظة همست؛ بحيث لا يستطيع السائق سماع ما قالت:" هذا عالم ضدّ الأكاذيب". هذا كلّ ما فكّرت فيه جين في هذا الصباح المتثاقل.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-٢٩-
انطلق بسرعة، واخترق أيامي

"أعاد المرآة إلى مكانها. لا يزال أمامه اثنتان وأربعون سنة. كيف يمكنه أن يعيش اثنتين وأربعين سنة أخرى؟ عليه أن ينتظر اثنتين وأربعين سنة حتّى تمرّ كلّ تلك السنوات. اثنتان وأربعون سنة من التحديق في عينيه اللتين بدأتا تشيخان".

إرفين د. يالوم

لا توجد في سماء طنجة غيوم، بل إن السماء أصبحت غيمة كبيرة داكنة، ممتدّة، لا تحركها رياح، وبدون ندى. حين غادرتْها جين، بقيت نوافذ البيت البولزي مغلقة. فضّلت جين ألا تترك المفاتيح لإحدى الخادمات، خوفاً من غضب بولز. من شدّة البرد، كادت أن ترتدي كل ثيابها طوال الطريق، ثوباً تلو ثوب. كانت في ما مضى حين تشعر بالحرارة، تخلع ثيابها في السيارة، أو القطار، ثوباً تلو ثوب. بدا السائق جنبها، كأنه نائم، إنه لا يتحرّك، بل حتّى لا يُنصت لما يجري حوله. هل هو نائم، بينما السيارة تعود عبر الطريق التي جاءت منها؟

بقيت السيارة تصعد، وهي محصورة على الطريق بين جبلين. علو الجبلين والسماء الداكنة جعلت جين تتخيّل أنها في غرفة نومها. وكما تفعل في غرفة نومها، أخرجت من حقيبتها اليدوية مرآة صغيرة ذات إطار نحاسي، وبقيت تنظر إلى وجهها. ركّزت نظرها على عينيها، وهي تطرح السؤال البسيط الذي يطرحه كل الناس على أنفسهم: كيف الهروب من سجن الزمن؟ حاولت التراجع عن هذا السؤال، لكنه بقي يُطرَح في عقلها،

Twitter: @ketab_n

ويتردّد دون نهاية. وحين أدركت أن المرآة، أو على الأصحّ، صورة وجهها في المرآة، هي مَن يطرح هذا السؤال، أعادت المرآة إلى حقيبتها، وأغلقتْها، كأنها تسجنها في الداخل؛ لتمنعها من الظهور مجدّداً. لكن السؤال بقي يتردّد، فاعترفت بيأسها وحاجتها إلى المساعدة. التفتت نحو السائق الصامت، الشبه نائم، وسألتْه:

- كم عمرك؟ كم تتوقّع أن تعيش؟

- ربمّا عشر سنوات أخرى، ربمّا أقل، أو أكثر. لكنني أدعو الله أن يمدّ عمري أكثر.

وهو يجيب على سؤالها، لاحظت جين أنه يتمنّى مثلما يتمنّى الأطفال شيئاً. لكنه لم يقل كما يقول المسلمون عادة:"الأعمار بيد الله". كل إنسان يتمنّى ألا يموت. لكنْ؛ كيف يجيب على السؤال الذي طرحتْه جين، ذلك هو الفارق والتميّز.

حين خرجت السيارة من الشقّ الجبلي الضيق، شعرتْ كأنها خرجت من غرفة نومها. ومباشرة بدأت تحسّ ما تحسّه حين تكون خارج الغرفة، أو البيت: الحماسة للعودة إلى البيت". فطرحت على السائق السؤال التالي:

- هل من طريق أخرى بين الجبال؟

بدأت قطرات المطر تتساقط متسارعة على زجاج النافذة. غرفة نومها - الآن - مرتّبة ومهجورة وباردة. الكتاب الذي تركتْه مفتوحاً فوق الطاولة سينتظرها حتّى تعود. كانت - دائماً - مقتنعة بأن الكُتُب تفضّل قارئاً واحداً حتّى لا يُساء فَهْمه. من الأسوأ للكتاب والكاتب معاً أن يُساء فَهْمهما. لذلك فتعدُّد القرّاء أمر يسيء للكتاب. ستبقى أوراقه جامدة في انتظار عودة عقل جين.

بقيت جين مغمضة العينين لفترة طويلة. وحين فتحتْهما وجدت نفسها تصعد غرفة نوم شاهقة، معلقة.

Twitter: @ketab_n

طرح السائق سؤالاً على جين، جعلتها تدرك مدى دهائه:

- هل يسافر السيد بول لفترات طويلة؟

أكملت جين سؤاله:

- ويتركك وحيدة داخل سجن الزمن؟

ذلك السجن الذي رأته في مرآتها الصغيرة ذات الإطار النحاسي، التي تضعها في حقيبتها، كلّما سافرت بعيداً عن بيتها/بيوتها. المرآة التي تتحوّل إلى أداة قياس رفيعة، تقيس بها كل شيء، بمجرد نظرة خاطفة فيها. تقيس بها الزمن وأعماق النفس. تعرف كم بقي من الزمن الآتي، وكم مضى.

- مرآتي، أنت بين العينين.

قالت جين لنفسها، وهي في حالة تفلسف نادرة. وأدركت بعدها أن هذه الحالة ليست خياراً للإنسان. ليست خياراً إنسانياً، بل قفزة خارج نفس المرء. وتحدث كثيراً خلال اليوم دون أن ينتبه.

- حين نصل، ونضع الحقائب، سأحكي للجميع حكاية، أريد أن تكون بيننا. والآن انطلق بسرعة، كأنك تخترق أيامي. لن أعيش كثيراً من زمن الحكي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

-٣٠-
الأفكار تصرخ

" "إني قذر. القمل يقضمني. الخنازير، عندما تنظر إليّ تتقيّأ. قشور البرص وندوبه سفطت جلدي، المغطّى بالقيح الأصفر. إني لا أعرف ماء الأنهار، ولا ندى الغيوم. فوق عنقي، كما فوق زبل، نما ثمّة فطر ضخم، ذو سويقات صيوانية".

لوتريامون، **"النشيد الرابع"**

جين امرأة جذّابة حين تحكي. بدأت أعراض المرض تتلاشى. تلاشت الواحد تلو الآخر. أصبح مزاجها معتدلاً، شعرت بذلك ما إن أطلّت السيارة على قرية "تنقوبت". حين ترجّلت من السيارة، وجدت صعوبة كبيرة في المشي، فأسندها السائق، وما هي إلا ثوان معدودة حتّى استوت، ومشت بخفة في اتجاه باب البيت الذي يقف على عتبته بول وستانتون وغالا ينتظرونها.

حين رأى بول زوجته جين شعر - فجأة - أنه لم يحضنها منذ أشهر. لم يقبّلها، ولا داعبها. لقد كانت مريضة بشدّة، وليس من اللائق ممارسة الجنس معها. لا ينبغي خرق قسم أبوقراط. جين آخذة في التحسّن، وبول سيصبر عنها حتّى تكتمل عافيتها.

حين اقتربت منهم، أفرد بول ذراعيه، وعانقها بحرارة. بقي ستانتون وغالا يتأمّلان مشية وضآلة جسم مؤلّفة النثر الرائعة. تقدّمت أكثر بمشية متعثّرة بسبب كثرة الحفر والنتوءات على الأرض المبتلّة بالمطر والطين. أخبرت بول، وهي تنظر إلى عينيه بأنها شعرت بتحسّن كبير، طرأ على صحّتها. وشكرته

Twitter: @ketab_n

على دعوتها للالتحاق به في هذه القرية الجميلة. وأضافت، وهي تبتسم أنه من بين المفاجآت السارّة هو تواجد غالا وستانتون.

دخلت غالا إلى البيت، وعادت، وهي تحمل كرسياً، قدّمتْه لجين. جلستْ جين، وهي صامتة، وتتأمّل الثلج في الجبال المحيطة بالقرية. ابتسمت لبول، فاقترب منها. سألتْه:

- هل وجدت شيئاً هنا، يا بول؟

- نعم، أشياء كثيرة. رغم أنني ما أزال في البداية. لن أرحل حتّى أُنشئ فريقاً من الموسيقيين الشباب، سأجعلهم يجتمعون بانتظام، ويقيّمون موسيقى وعزف بعضهم البعض. وهذا الفصل البارد هو أجمل الفصول وأنسبها لهذا المشروع.

سمعت جين لحناً قروياً شجياً، ينبعث من الداخل. وفجأة قرّرت أن تدخل. تبعتْها غالا في البداية؛ إذ بقي بول وستانتون والسائق بعيداً عن مدخل البيت. رحّبت غالا مجدّداً بجين، وقدّمت لها كأساً مليئة بالقهوة. ارتفعت درجة اهتمامها بالألحان الشجية. إنها أصوات صافية صادرة عن أوركسترا منسجمة. سمعت ما يشبه الصفير المهيمن على باقي الأصوات. اتّجه نظرها - مباشرة - إلى الركن الصغير الذي وضعت فيه آلة التسجيل البدائية التي شغّل فيها بول شريط تسجيلاته. ملأت الألحان المكان. خاطبت جين غالا بعد أن لاحظت أن النار غير موقدة:

- ألم تجربوا بعد هذه المدخنة؟

- لا، ليس بعد.

أجابت غالا، وهي تهزّ كتفيها.

هزّة الكتف تلك لم ترق جين، فأجابت بقول يناسب تلك الهزّة:

- أشعلي النار، يا غالا، كوني على الأقل أمريكية بإشعال النار في

Twitter: @ketab_n

مدخنة فارغة.

غيّرت غالا الحديث:

- السيدة بولز، إنكما تنتقلان كثيراً، أ ليس كذلك؟

- هذا أمر أصبح معروفا لدى الجميع. أ ليس كذلك؟

- نعم، كما أصبح شائعاً أنكما تجمعان الألحان من العالم أجمع.

- زوجي يسافر كثيراً. حين يسافر أعلم أن أعصابه متوتّرة، وأنه يريد تهدئتها بالسفر.

- لحظة سيدة بولز، سأشعل المدفأة، وستكون مناسبة لإحراق مجموعة من الرسائل التي لم أعد أرغب في قراءتها.

- لمَن الرسائل؟

- هي لأحد معارفي، وهو - الآن - يقبع في السجن لقبوله مبلغاً مالياً ضخماً من دولة آسيوية، من أجل القيام بأعمال دعائية في الولايات المتحدة. ووجود رسائل بتوقيعه بحوزتي أصبح يُرعبني. أشفقتُ عليه كثيراً حين ضمّن إحدى رسائله مقطعاً من قصيدة لشاعر فرنسي، اسمه لوترامون، يشتم فيها نفسه، ويصفها بالقذارة. لم يكن يوماً ينطق بهذا الهجاء الذاتي.

لاحظت جين أن وجه غالا أصبح فارغاً من التعابير. في بضعة دقائق معدودة، ارتفعت سنين عمرها. لهذه الدرجة يهمّها مصير قريبها؟ ودون انتظار غيّرت جين مجرى الحديث:

- من الممتع جدّاً الإقامة هنا لبعض الوقت. أين بول وستانتون؟

- الأمريكيون حين يرون الثلج ينسون كل شيء، حتّى نساءهم.

- بول يكره البقاء في المنزل.

خلال تلك اللحظة مرّ شخص من أمام الباب. نهضت غالا، وتوجّهت نحو الخارج؛ لترى من هناك. الأمريكيون، وهذه مرة أخرى، يرتابون من المارة

Twitter: @ketab_n

من أمام أبوابهم. فلجُلّهم تجارب مع سرقة جوازات سفرهم من غرفهم في الفنادق، أو من إقاماتهم في البيوت المكتراة. لم يكن الظل الذي مرّ سوى عشوشة، صاحبة المنزل. نادت عليها غالا، ودعتها إلى الدخول للتعرّف إلى سيدة أمريكية كبيرة. لم تقدّمها كزوجة لبول بولز، كما يحدث الأمر في طنجة، أو فاس، أو مراكش. فعشوشة لا تعرف مَن هو بول بولز.

كم راق لجين متابعة لون السماء التي بدت مربّعاً شفّافاً. كم كان عجيباً تغيّر لونها المستمرّ. "بعد قليل، ستبدأ طيور السنونو لعبة اللحاق" قالت جين لنفسها. لم تعد تشعر بوجود غالا أو عشوشة التي تتهيّأ للمغادرة، إنها امرأة خجولة، وتتحمّل مسؤوليات كثيرة. تريد أن تلتحق بمطبخها بسرعة، لا شك أن عبد السلام عاد من السوق وهو يحمل ما طاب من الخضر واللحوم والفواكه. نهضت، وشكرت غالا وجين بلهجة غامضة، ثمّ قالت بعربية متعثّرة إنها تدعوهما إلى وجبة لذيذة، ستطبخ لهما أرنباً بالبصل.

بقيت جين تراقب السماء، وتسمع أفكارها داخلها تصرخ. كانت تريد أن تحكي عن كل شيء. ليس هناك موضوع لحكاياتها. شعرت أنها تحمل في داخلها كل الحكايات، ولن يكون بمقدورها حكايتها إلا بصوت شاحب. وقد تتجمّد شفتاها بعد نطق أول كلمة. ستحرّك لسانها البطيء داخل فمها، وراء شفتيها. عندها سيتكلّم وجهها الذي بقي ينتظر الذكريات طيلة ليال. تُرى مَن سينظر إليها باهتمام؟ مَن سيساعدها على القول؟ لكنها شعرت أن فمها سيظل صامتاً إلى الأبد. تخيّلت أنها تمسك حكاياتها بين يديها، مثل أمّ تمسك رضيعاً يبكي. لكنْ؛ رغم كل شيء، جرّبت أن تبدأ حكايتها بالتعبير الذي جاء في رسالة قريب غالا:" إني قذر، القمل يقذمني....". عاد صوتها إلى حنجرتها، فخفضتـه خوفاً من أن يسمعها أحد ما.

Twitter: @ketab_n

-٣١-
البحث عن حكاية في براميل وأكياس كرش السفينة

"الجميع يُولَدون مزوّدين بموهبة ما، وإلزا سوميرز اكتشفت منذ وقت مبكّر أن لديها موهبتين اثنتين: حاسة شمّ حادّة، وذاكرة قوية. وقد أفادتها الموهبة الأولى في كسب حياتها، والثانية في تذكّرها، إن لم يكن بدقّة، فعلى الأقل، بغموض عرّاف شاعري".

إيزابيل الليندي، "ابنة الحظ"

"ما هي موهبتي التي وُلدت بها؟"، تساءلت جين، وأجابت في الحين:" موهبتي هي تذكر كلّ شيء بغموض شاعري". وهذا الغموض يجعلها - أحياناً - تفضّل النسيان. رغم أنها تعرف أن ذكرياتها كثيرة جدّاً، مثل أوهامها تماماً. لا تعرف أين قرأت أن الذاكرة أشبه بكرش سفينة، فهي فسيحة ومظلمة، ممتلئة بالبراميل والأكياس، تتراكم فيها أحداث حياتها كلها.

خرجت غالا، وبقيت جين وحدها في البيت الريفي، تحاول التذكّر، تفتّش في براميل وأكياس كرش السفينة عن حياتها. وإن تذكّرت شيئاً، ستحكي لهم حكاية في المساء، حين يتحلّق الجميع حول مائدة العشاء. انتبهت إلى أنها لم تكن في وضع مَن يريد أن يتذكّر بشكل جيّد. لماذا أضافت "بشكل جيّد"؟ مَن يريد أن يتذكّر فقط. لكنها لم تستطع أن تخرج من رأسها أنها لن تستطيع العثور على ذكرى واحدة داخل أكوام الأحاسيس والمشاعر والكلمات والأفكار. إنها تشعر بمرض جديد، قد أصابها. مرض خطير، يجعلها في عزلة عن ماضيها، وعن حياتها السابقة. لكنْ؛ رغم عجزها ما تزال تشعر بانجذاب نحو الحكايات. شحوب وجهها يوحي بأنها تكابد،

Twitter: @ketab_n

وهي صامتة. لكنها أصبحت أكثر قدرة على التصميم لإلحاق الهزيمة بكل مرض، يقترب من جسدها. نهضت، وتوجّهت نحو النافذة الصغيرة، الوحيدة المقابلة للجبل الأبيض الساحر. وحين أرادت أن ترى المشهد كاملاً، بحثت عن كرسي، تصعد فوقه، فلم تجد قربها سوى آلة خياطة قديمة، فتحوّلت ذكرياتها إلى الزمن الذي كانت والدتها تخيط لها ولأخوتها ملابس الشتاء على آلة مشابهة. حين استندت إليها، سمعت صريراً خافتاً، لقد فعلها الزمن.

آلة الخياطة التي نصفها خشب، ونصفها حديد، هي مثير الحكايات والذكريات. ابتعدت عنها، وجلست فوق سرير خشبي مقابل لها، وعادت؛ لتطأ أقدامها زمناً سحيقاً وأراض بعيدة. حين كانت تسمع صوت آلة الخياطة، الذي يشبه صوت محرّك السيارة كانت تجتاحها الرغبة لتقليد والدتها. وحين ترفع والدتها رجلها عن المكبس، وتبقى الآلة تشتغل، وتصدر أصواتها، تعتقد - وهي خائفة - أنها مسكونة بالجنّ. وحتّى حين تذهب إلى المدرسة، تبقى تلك الأصوات في مسمعها. بل وكانت تضع رجلها على القطعة الخشبية أسفل الطاولة، وتبقى تحرّك رجلها، كما تفعل والدتها على آلة الخياطة. بقيت جين تبحث عن تفاصيل أخرى، لكن ذاكرتها أبانت عن عجز كبير، الطفولة نصّ ضائع.

فجأة - ودون مقدّمات - رفعت جين من صوتها، وهي تدعو غالا وستانتون. جاءت غالا مفزوعة، وعند دخولها، قالت لها جين، بصوت آمر:

- لابد من تهوية البيت، افتحي النوافذ، رجاء.

في البيت نافذة واحدة. وحتّى لو كان البيت مليئاً بالنوافذ، فإن جين ستشعر بالاختناق. فتحت غالا الباب، وهي تقول لجين بأن البيت لا يتوفّر سوى على نافذة واحدة. في تلك اللحظة، دخلت عشوشة، وبقيت تنظر إليها من رأسها إلى قدمها. لم يبقَ سوى أن تمدّ يدها إلى صدرها، أو عنقها؛ لتجسّ نبضها. ثمّ قالت:

Twitter: @ketab_n

- ما تعانينه سيدتي هو التعب الشامل. وهو مرض مفاجئ معروف عند سكّان الجبال. لا تخافي، عندي الدواء.

ابتسمت جين، وشكرت عشوشة التي نطقت بتشخيصها، واختفت بسرعة؛ لتجلب الدواء. ترجمت جين لغالا الحائرة ما قالته عشوشة. ثمّ أضافت:

- هذا حصار، وليس بيتاً، تقيمان فيه. كيف تتحمّلان؟

لم تتحرّك غالا من مكانها، ولم تنطق بجواب. ظلّت سائلتها تنتظره. اتّسعت فتحتا أنف جين. خرجت غالا، ونادت بصوت مرتفع على بول وستانتون التائهين مثل طفلين وسط أشجار الغابة الممتدّة على المنحدر. وما فاجأها هو ظهور أشباح كثيرة من أشباح هذا اليوم الغائم، وكان يتقدّمهم بول وستانتون. إنها جوقة موسيقية جبلية، كثيراً ما طاردها بول لتسجيل ألحانها. وتساءلت: كيف ستتصرّف جين، هذه المرأة التي أصبحت - تقريباً - بلا أمل، حين يدخل بول، ومعه جوقته الكثيرة العدد؟

ظلّت جين تحاول التذكّر. طفولتها هي منجمها الضائع المليء بالمواد الخام. لكن صعوبة عمل ذاكرتها يعود إلى عنف تغيير المكان. لم تعد هناك كلمات على شفتيها. كما اختفت الحكايات التي طالما كانت تؤنس نفسها، ومعها بول، بها. أرادت أن تتذكّر كيف تعرّفت إلى بول؟ في أي مكان؟ في أي مدينة؟ في أي قارّة؟ كيف كان الطقس؟ في أي فصل؟ وحين سمعت وقع الأقدام الكثيرة تقترب من الباب، نهضت، وأطلّت من النافذة الوحيدة في البيت، فلم تسمع إلا الخطوات والكلمات العربية الغامضة، وقد اشتدّ ضجيجها. غير أنها لم ترَ شيئاً. ظلّت غالا إلى جنبها، تنظر، وترقّب، دبّت الأقدام - من جديد - بضجيج أعلى مُنبئة عن اقترابها. لم تتبيّن جين إلا إنجليزية بول، وهو يخاطب ستانتون. وعندما شعرت غالا أن جين لم تسمع شيئاً؛ لأنها كانت تدير أذنيها بالتناوب نحو مصدر الضجيج، قامت بترجمة كل ما سمعته، سواء فهمته أم لم تفهمه.

Twitter: @ketab_n

- بول وستانتون قادمان رفقة جوقة موسيقية جبلية.

- ماذا؟

- بول يقول لستانتون إنه سعيد بهذا الاكتشاف النادر.

- جوقة موسيقية؟ اكتشاف نادر؟ جوقة موسيقية؟ اكتشاف نادر؟

ثمّ وضعت يدها على عينيها، كأنها تتّقي ضوءاً، أعشى بصرها، وانهارت على السرير حائرة، ضعيفة، يكاد قلبها يخرج من مكانه. حين دخل بول، فيما بقي الآخرون في الخارج، لامس يد جين بيده. ويا لها من مداعبة غير مُجدية. اقتربت غالا من بول، ووقفت وراءه، وبقيت تراقبه، وهو يداعب يد جين النحيفة. التفت، وقال وهو يكاد يبكي:"إنها نادمة على عدم تعلّمها الوصفات القديمة لعلاج الأمراض التي أنهكت جسدها. إنها نادمة على عدم تعلّمها العزف على البيانو، وزرع الأعشاب في شرفتها".

فاحت رائحة البخور الذي أشعلتْه عشوشة في بيتها، وجاءت به؛ لتشمّه جين. ظنّت جين أنها تشمّ رائحة حديقة مكسيكية. بقيت تُنصت لما يقوله الواحد للآخر. أرادت أن تردّ عليهم جميعاً، أن تصحّح ما قالوه، فكل ما قالوه، وما سيقولونه، عنها هو خطأ. مدّت يدها إلى وجهها، فوجدتْه بارداً. لا، لم تمدّ يدها، بل تخيّلت أنها مدّتها؛ لتقيس حرارة جسمها. نظرت نحو بول، لا، لم تنظر نحوه، بل تخيّلت أنها تنظر إلى هذا الرجل النحيف والطويل القامة، الذي هاجمه المرض آلاف المرّات، وتوجّه إليه هذا الكلام: "كيف تداعب يدي؟ أما تزال قادراً على حبّي؟ وهل تظن أن قواعد حياتي ستتغيّر، بمجرد أن تداعبني؟ هل الحجج بين يديك الآن، كما امتلكتْها دائماً؟ لم أرك تحزن على موت تينيسي وليامز، الذي لو كان واقفاً الآن على رأسي، كما تقف أنت، لقرأ كلمات رائعة على وجهي الهادئ. هيا، أجبني، عبّر، يا بول، فذلك من قبيل الجسارة. هل عادت كلماتك إلى خوفها السّرّيّ؟".

ربع قرن من الندم، زمن طويل. آخرون سيتكلّمون عن هذا الأمر. كما سيتكلّمون عن الزوج بول الذي عاد إلى نفسه، إلى "الشقيق التوأم العدوّ"؛

Twitter: @ketab_n

لكي يقنعها بأن الأمور ما كان أن تكون إلا ما كانته. بقي الباب نصف مفتوح. من النافذة الوحيدة في البيت القروي، وقف بول وغالا وستانتون ينظرون إلى الريح في الخارج، وإلى الأشجار التي بدأت تلمع بعد أن غسلتها الثلوج والأمطار. فاحت رائحة قوية من الأرض، كأنها تتنفّس بعمق، ذلك التنفّس الذي لم يُسعف رئتي جين. وفي السماء، لمعت نجمة ضخمة قبل أوانها، وبدت قريبة كأنها في متناول اليد. لكن ثلاثتهم يعلمون أنهم لا يستطيعون لمسها أبداً. لكن جين العاجزة، الباردة، المحاطة بأناس، أحاطت بهم مشاعر مختلطة، أرادت أن تُترجم ما قالته النجمة:"تعالوا؛ لتعيشوا معي في منزلي الكبير". سمعت جين صوت النجمة الضخمة البعيدة بوضوح، كأنها تسمعها تتكلّم في آلة تسجيل. في تلك اللحظة، فكّرت في شيء تأكله، فهي لم تأكل شيئاً منذ زمن. ورغبتها الملحّة - الآن - هي ضلع عجل على مشواة بالفحم.

وقف بول خارج البيت، وضع قدماً على الأرض، وأخرى في السماء. القدم التي على الأرض يشدّها حبل الألم، والتي في السماء يرفعها حبل الرغبة. وبين الفينة والأخرى، يلتفت إلى داخل البيت، نحو نيران مُوقَدَة في قلب حبيبته جين. نحو وجهها الذي اتّخذ لون قدور الفخّار حين تخرج من داخل الفرن. كان جسدها يفرز عَرَقاً غزيراً. حاول طمأنتها بحركة من يده. تابعت جين الحركة الدائرية البعيدة، أرادت أن تتكلّم، فبقي الصوت يتردّد في الداخل:"يجب نسيان كل شيء، يا بول. هل مات تينيسي، يا بول؟ أم أن خيالي هو الذي أصبح يتسلّق قمم الموت العالية؟ أنا وأنت وتينيسي سوف يغطّينا نفس النسيان". كان الكلام يتردّد داخلها دون أن تحرّك، ولو أصبعاً واحداً، أو يرمش لها جفن. ثمّ أضافت، داخل نفس التوهّم:"في أي شيء سنفكّر - يا بول - بعد أن تفصل بيني وبينك ثلاثون متراً مثلاً؟ حين نبتعد عن هذه الجدران المطلية باللون الأزرق، العزيز على سكّان جبال المغرب؟ هل ستكرّر عباراتك: اتركيني أعمل...دعيني أهتمّ بكل شيء...". ثمّ تدقّ كأسك بكأسي، وتشرب؟!. وحين تلاحظ أنني لم أشرب من كأسي؛ بحيث بقي ممتلئاً، كما صببتَهُ لي، ترفع كأسك الفارغة، وتقول، وأنت

Twitter: @ketab_n

تضحك: العالم منقسم إلى بطون ممتلئة، وأخرى فارغة. تعجبني تشبيهاتك واستعاراتك التي تقولها حين تشرب، وبعدها تنساها، كأنك لم تقلها أبداً. ذلك شيء سهل جدّاً، يمكنني أنا - أيضاً - القيام به، أو التظاهر به. ثمّ تمدّ يدك إلى إبزيم حزامك، وتشدّه أكثر".

بقيت جين، كاتبة النثر الرائعة، تتحدّث، بقوّة، لم تكن تمتلكها من قبل، وهي محاطة بزوجها الذي يُشفق عليها، وأمريكيين آخرين عاجزين، وجوقة موسيقية جبلية، لم تتمكّن - بعد - من عزف لحن واحد. بدأت غالا تبكي، وهي جالسة على حافة السرير. لم تسمع حرفاً واحداً من خطبة جين المونولوغية الطويلة. يا للسراب! يا للخديعة: أنت تعتقد أنك تتحدّث والآخرون يستمعون إلى حديثك. وتظنّ أنك تمشي نحو الأمام، لكنك في مكانك ثابت، جامد. لا كلام يفصل بينك وبين الآخرين، هي - فقط - مجرّد حالة بهيمية. يا للخديعة! انكشف الغطاء عن رجلها اليسرى التي كادت تتدلّى من السرير، فلاحظت غالا تشوّهاً في الركبة. ذلك التشوّه الذي يلحق بأرجل الناس الذين يمشون بسرعة وعصبية. بذلت جين جهداً كبيراً لفتح عينيها، فقد اعتقدت أنها حين تفتحهما، ستسمع الأصوات حولها. لكنها لم ترَ شيئاً، ولم تسمع شيئاً.

تمّت

الرباط، ١٢ ماي ٢٠١٦

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كانت جين تحبّ رفقة المغاربة، على العكس من بولز الذي ينفر منهم بسرعة. وأكثر ما أحبّت في المغاربة حسّ الفكاهة لديهم. وحياتهما التي تشبه حياة الرّحّال، من مدينة إلى مدينة؛ من طنجة إلى فاس، ومن فاس إلى مراكش، ثمّ الرباط، هذه الحياة أكسبتْهما ردود فعل مشتركة إزاء المُدُن.

بقيت جين تتحدّث إلى والدة بولز، وهي تراقب درجة صدمتها، فالمغرب يُحدث صدمة لدى الزائر في الوهلة الأولى، خصوصاً إذا كان أميركياً. ثمّ نادت على إحدى الخادمتين بلهجة طنجاوية خالصة، فردّت عليها الخادمة، وهي معجبة بلهجة جين التي برعت - حقاً - في اكتسابها. وبولز ، عكس جين، كان يشعر براحة أكبر، وهو يستعمل المفردات والنطق الفاسيين. وكانت جين تسخر من لسانه الفاسي. استمرّت هذه اللعبة، لسنوات عديدة، إلى أن يستسلم بول، ويتعلّم استعمال اللسان الطنجاوي.

كان التفوّق اللغوي لجين في اللغة العربية نتيجة قضائها فصل خريف بكامله في باريس، تتردّد على مدرسة اللغات الشرقية، وما إن وصلت إلى طنجة أول مرّة كانت تتوفّر على إدراك هام لتكوين الكلمة والنحو العربيين. وزادت على ذلك دعماً وتطويراً لذلك الإدراك الأولي، قرّرت مواصلة دراستها تحت إشراف أستاذ مغربي. وما هي إلا مدّة قصيرة حتّى أصبحت تتحدّث العربية، بطلاقة. ذلك ما لاحظتْه والدة بولز حين تتحدّث جين إلى الخادمتين بعربية طليقة. وبعد كل تلك الأحاديث المتعدّدة اللسان بين النساء الموجودات في بيت آل بولز، سألت السيدة بولز عن ولدها الغارق في الصحراء. فأجابتْها جين بأنها تحسّ بأنه سيصل الليلة، ويرتمي بين أحضانها. وعلى أطراف جوابها، بقيت الأم تنتظر.

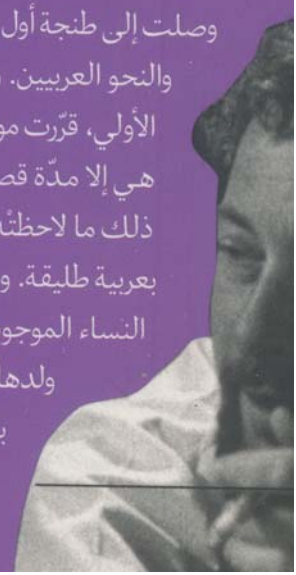

Twitter: @ketab_n

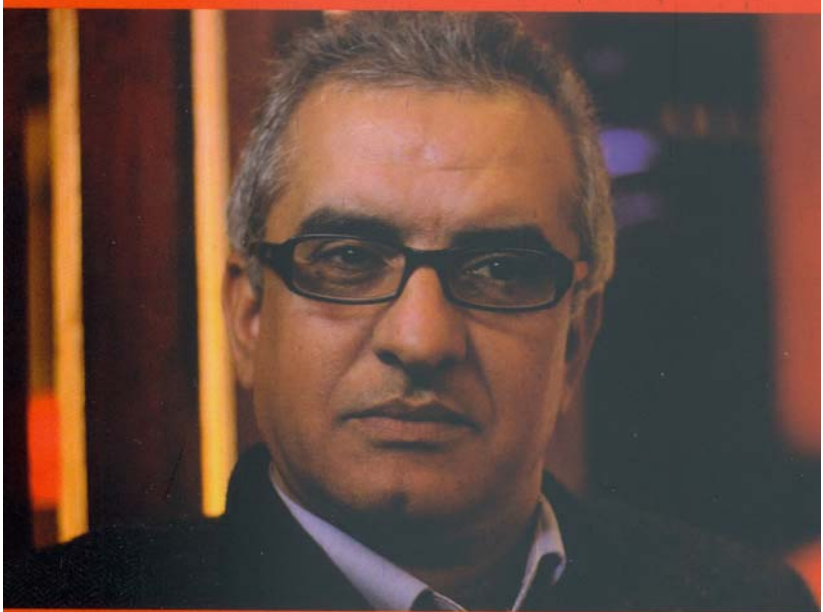

محمود عبد الغني: من مواليد مدينة خريبكة في المغرب عام ١٩٦٧، شاعر وروائي مترجم وباحث. يعمل أستاذا للأدب الحديث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

صدرت له العديد من المجموعات الشعرية، وفي الرواية صدرت له «الهدية الأخيرة» عن المركز الثقافي العربي عام ٢٠١٢، والتي حازت على جائزة المغرب في السرد عام ٢٠١٣. ثم رواية «أكتب إليك من دمشق» عن دار العين ٢٠١٦.

كما وصدرت له العديد من الدراسات البحثية والنقدية. إضافة إلى ترجمته لعديد من الكتب بين الدراسات والشعر والرواية، منها ترجمته لرواية مزرعة الحيوان لجورج أورويل الصادرة عن المركز الثقافي العربي عام ٢٠١٣.

المتوسط

Twitter: @ketab_n

كيف عاش تينيسي ويليامز، المسرحي الأميركي الشهير، في مدينة طنجة، كيف التقى محمد شكري في مرسم اليعقوبي؟ لماذا سماه محمد زفزاف الشهاب السريع، ما علاقة بول بولز بالمثقفين آنذاك. هذا ما تخبرنا به رواية محمود عبد الغني «معجم طنجة». طنجة المدينة، طنجة الناس والأحداث العاصفة. طنجة الشرق، طنجة الغرب، بل طنجة الخليط غير المحدود من الأعراق والأجناس التي زارتها أو عاشت بها.

تعدُنا هذه الرواية برحلة شيقة مترعة بالفن وبالشخصيات الغريبة التي عاشت في طنجة في القرن الماضي، تعدنا بالأحداث الكبيرة، وبالعلامات الدالة سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم ثقافية، تعدنا بالأمل عندما تتحول المدينة في هذه الرواية عبر أساليب سردية متنوعة إلى سجل هائل تدون فيه أحداث في غاية الأهمية من التاريخ الشفهي في القرن الماضي.

ISBN 978-88-99687-42-7
9 788899 687427
المتوسط